

فهي رحاب الأدب
تجارب أدبية وثقافية

سعد صائب

**في رحاب الأدب
تجارب أدبية ونقدية**

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

تصميم

الغلاف

الفنان

أنور رجا

إلى القارئ

قارئ العزيز !

هذا الكتاب الذي بين يديك، لا يعدو لبنةً أضيفها إلى اللبنة التي قام عليها أدبي آليت على نفسي إقامته منذ ما يربو على الخمسين عاماً ... وإذاً جاز لي أن أظهرك على منهجي في تعاملي مع النص الذي أدرسه - كناقده - وأطلعك على طريقي في الحكم بشأنه - كباحث متذوق - فاني مبادر إلى القول : إن منهجي وطريقي كامنان في تلقي النصّ ، لا بقلبي وعاطفتي فحسب ، بل بعقلي وخبرتي كذلك اللذين يعيناني على فهمه والاستمتاع به .. واضعاً نصب عيني أن كاتبه بقدر ما يعبر عن خصائصه المميزة ، وتصويره احساسه بصدق وإخلاص ، بقدر ما يبلغ تلقي آياه غايته ، وينتهي إلى اندماجي فيه وانسجامي معه إلى مداه .. فأحسّ وكأنني جزء لا يتجزأ منه ، وأني تعرّفت فيه على نفسي من خلال تعرّفي على نفس صاحبه وأني تعرّفت على طريقته التي عبر عنها ... وهذا الانسجام المتبادل هو - عندي - الغاية المثلى التي أرتبط بها ارتباطاً قوياً ، مستوفياً فيها كل القدرات التي ينبغي للنقاد الذواقّة المتقف أن يتمثلوها ويتفاعل معها ، ابتغاء نقل هذه العُدوى contagion

المستملحة - إن جاز القول - إلى قارئه ، واثابة الفرصة له لفهم النصّ والاستمتاع به ، وإدراك الأبعاد التي تدعوه إلى مشاركته في الكشف عنها ، والإفادة من موارثها التي تعينه - كما اعانت الناقد - على استشفافها والتعرّف على ما فيها ((من ملامح فنيّة مستقلة في وجودها عن كل ما يحيط بها من عوامل خارجيّة)) وتفسيرها وتعليلها والحكم عليها طامحاً إلى إيقاف استجاباته لما تتبّع من عمليته النقدية التي مارسها ، مترسماً قول (اليوت) :

((إن الوظيفة الأساسية للنقد الأدبي ، هي تفسير الأعمال الفنية ،
وتقويم الذوق الفني - وإنها الارتقاء بتفهم الأدب والاستمتاع به)) ! ..

من هذا المنظور الجامع المانع وفيه أثبت إنسيي Humanisme
معنياً بإظهار المناقبة الأدبية للكاتب أو الشاعر الذي أدرسه ، ومماثلة
من فكر وثقافة !..

كما أوكد عقلانيي Rationalisme القائمة على إبراز الصفات
التي تثبت مطابقة ما يكتبه بعقله ومنطقه !.

وكيف دار الأمر فإن رؤيتي من خلال ((انسيي)) و عقلانيي ليست
مقتصرة على مادرجنا عليه في صياغة ((الاجناس الأدبية)) ولا على مشاطرة
سواي وجهات نظره في الفن بها كمشال يحتذى .. بل في دعوتي الى
الاعتماد على النفس في اختيار ما تحتاج اليه ، وإدراك الجودة فيه في سياق
التحري عما يفيد أدبنا ، ويعبر أصدق تعبير عن أفكارنا !..

ولعلي في البحثين اللذين ضمتهما كتابي وهما : ((مناخ الشعر))
لجاءك شارينزو ، و ((بيانات شعرية)) لجورج لانز .. قد هدفت من ترجمتهما
الى ايقاظ وعي كتابنا وشعرائنا ، وإثارة اهتمامهم كيما يتجهوا الوجهة
الصحيحة في بلورة رؤيتهم الى مناخ شعرنا الجديد ، واستكمال مقوماته !..

والبحثان اللذان التزمت بالإشارة اليهما ، يكتسبان دلالة خاصة
مابرح توثق كتاب الغرب وشعرائه ، وتشغل فكرهم ، لست مغالياً إذا
قلت : إنها توثق اليوم كتابنا وشعرائنا ، وتشغل فكرهم .. مؤكداً أن
تعاملنا مع هذين المفهومين لا يتناقض البتة وما أفصح كتابهما عنه ، وأرادا
منه .. لأننا - كما يحيل الي - لانلقى فرقاً ظاهراً بين مادعا اليه (جورج
لانز) مثلاً في (بياناته الشعرية) وبين ماندعونحن اليه اليوم من الحذر مما
تعكسه روح العصر من تأثير مطلق في حياتنا ، أفضى الى اندفاعنا فيه دون
روية أو تفكير ، مما يستوجب علينا ((تحرير الفرد من جبروت المجتمع
الصناعي البورجوازي واهوائه ، كما يستوجب أن يفتح الفن عوالم جديدة
تؤدي وظيفتها للصعود الى مدارج الجمال الانساني)) . مستفيدين في - خاصة

المطاف - من تجارب الأمم التي سبقتنا في مضمار التحرر ، وولدتها نفوس
أفرادها ، وتطلّعهم بالتالي الى الانعتاق من ربة تقنية هذا العصر ، وماديتة ،
سعيها الى بلوغ خلاص الانسان وسعادته !..

تلك هي الدلالة - قارئ العزيز - التي حفزني الى جمع هذه المقالات
في وحدة متكاملة ، رامية الى فتح عوالم جهالية جديدة ، متطلّعا الى مستقبل
أدب عربي مشرق ، تتغير فيه حياتنا ، ويتسامى فيه وجودنا نحو الأفضل ،
مردّد أقول شاعرنا :

تفناءل بما تصوي يكن ، فلعلّما
يقال لشيء كان الآ تحقّقها

دمشق - الروضة

سعد صائب

مع سلمي الحفار

في أحدهما وحياتها

ما فرغت يوماً من تلاوة أثر من آثار السيدة سلمي الحفار
الكزبري - في العربية أو الفرنسية ، إلا وأطلقت التأمل في كلمة
(الجاحظ) القائلة : واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد ، أدخلت كل
واحدة منهما الضم على صاحبها .. ثم لا ألبث أن أطرح على نفسي
هذا السؤال :

تري ... على أي من اللغتين أدخلت أديتنا السيدة سلمي
الضيم ، وهي تتقنهما معاً ؟ أعلى لغتنا العربية التي أبدعت في الكتابة بها
، فأخرجت أثراً قيماً ، دلت على تمكنها منها ، وعرفانها مكنون
روحها وسر عبقريتها ؟

أم على اللغة الفرنسية التي نظمت فيها قصائدها الغر ، في سلامة
تعبير ، وبلاغة تصوير ، وروعة أداء ؟

لئن خال الجاحظ أن مقولته ستغدو قاعدة مطلقاً ، فقد توهم
بله أخطأ شديداً الخطأ ... وحسبنا برمانا ، شاعرنا التي كانت ولما
تبرح استثناءً يدحض قاعدته بل ينفى أشد النفي ، إن جاز
للاستثناءات التي تبدعها الحياة ، أن تنفي القواعد التي يطلقها الموهوبون
من أبناء الحياة .

فما السر إذن ؟

لست أدري إذا كان السير كامناً في روح اللغة الفرنسية التي
نظمت فيها ، كما نظم سيواها من شاعرات العربية وشعرائها ، ممن
يطلق عليهم عادة شعراء في اللغة الفرنسية POETES DE LANGUE
FRANCAISE أم كان السير مُستسراً في روح الإنسان العربي نفسه ،
الذي يتمثل اللغات تمثلاً حياً ، أيا كان لونها ، فيخضعها لإرادته ،
ويقربها من سليقته ، ويطبّعها بطابعه ، وينطقها كأبنائها ، دون أن
تشوب نطقه لكُنة أو تعزيره هُجنة ؟ مهما يكن من أمر خصائص
اللغات ، وتميّزها بصفات خاصة ، ومهما يكن من أمر احتفاظ كل لغة
ببدالاتها ، فثمة - في اعتقادنا - خاصّة نادرة ، تفرّد بها إنساننا
العربي ، تجسّدت في قدرته على النفاذ في روح أية لغة والنطق بها ،
والكتابة فيها ، بشكلٍ جميلٍ يُبعث على الدهش .

وأصدق مثال ، شاعرتنا السيدة سلمى ، التي استطاعت بما
أوتيت من موهبة فذة ، وسليقة مطروعة ، أن تستلهم روح اللغة
الفرنسية ، وأن تتمثلها وتنفذ في روحها ، فتتلق بها على خير ما يكون
النطق ، وتنظم فيها وتكتب ، على أحلى ما يكون النظم ، وأقسن
ما تكون الكتابة ...

وليس سني هذا أنها يبروزها في الفرنسية ، والمأهيا بأدبها
ومشاركتها في ، قد أدخلت الضيم على لغتها العربية ، فلم تغن بها
العناية التي تستحقها ، بل نراها تسير في تعبيرها بلغتها العربية ، في قرن
واحد مع مسيرتها في تعبيرها بالفرنسية ، مما بواها لأن تغلو أدبية ، عربية
كذلك ، لها اداؤها المميز ، ولها لغتها النقية الصافية ، التي تعجب
وتطرب وتبهج . ثمة سؤال ثان لا بد لنا من طرحه :

متى بدأت شاعرتنا النظم في الفرنسية ، وما هو أسلوبها فيه ؟

تحدثنا السيدة سلمى عن ذكرياتها مع الشعر بعامة ، والشعر
الفرنسيّ بخاصة ، فتورد في كتابها الممتع "عبر ورماد" نبذاً من هذه
الذكريات الحلوة ، نقطف منها قولها :

أما ذكرياتي مع الشعر ، والشعر الفرنسي خاصة ، فإنها ملازمة للمرحلة التي اتحدت عنها (تعني السنوات التسع التي قضتها في مدرسة الراهبات ، ومدرست فيها الرياضة والموسيقا والشعر) حيث اكتشفت سحره وجماله عن طريق ما كنا ندرس من الشعر الرومانطيقي والغنائي ، ممثلاً بالشعراء أمثال: (لامارتين) و(موسه) و(فيكتور هوغو) في القسم الاعدادي ، ومن ثم مدارسنا من نماذج الشعر الوجداني والرمزي ، ممثلاً بالشعراء (فرلين) و (رامبو) و (مالارميه) في القسم الثانوي ... أحببت الشعر الفرنسي منذ بداية عهدي بمعرفته ، لعدة أسباب ، منها سهولة بيانه ، وعذوبة الفاظه ، ورقة موسيقاه ، التي تنبعث من جرس اللغة ذاتها ، كما أننا ، رفيقاتي وأنا ، شغفنا به ، لبساطة معانيه العاطفية التي كانت تؤثر فينا ، وتنفذ الى أعماقنا فتعزينا وتنسينا ، وتحفزنا على حفظه ومحاكاته أحياناً . وهذا ما أقدمت عليه مع بعض أترابي من السوريات ، فكننا ننظم الأشعار في أوقات الفراغ ، وتبادلها خلسة في أوقات الفرص ، مزهوات بأنفسنا ، معجبات بموهبتنا ، وكأننا أصبحنا شاعرات حقاً ، بل من كبار الشعراء . يا لغرور الشباب ، ويا لقدرتيه على التزيين والتضليل !.

كنا ، "صونيا شلهوب" ، و"ميمي ألوف" وأنا ، نقلس الشعراء ونجملهم ونضعهم فوق الملوك والباطرة ، ولشدة تأثرنا بقصائد لامارتين أمسينا نكتب القصائد في الحب وفي الحرمان ، وفي الألم والحنين ، وكأننا نحيا الحياة ، وعركنا الدهر ، وكأنّ التجارب حنكتنا والآلام صقلتنا . إن الميل الى المحاولات الشعرية أمر مألوف لدى الفتيان والفتيات في سن المراهقة على الأغلب ، وقد قال ناقد في هذا المعنى : " ليس غريباً أن يكتب الإنسان الشعر بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، حيث يكون أكثر الشباب شعراء في تلك المرحلة ، أما الذي يكتب الشعر ، وقد تجاوز الأربعين فإنه شاعر حقاً " .

وتمضي في رواية الظروف التي تعاورتها في مدرستها فتقول :

" كُنَّا نَخْضَعُ لِمِرَاقِبَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ قَبْلِ الرَاهِبَاتِ آنَئذٍ ، فَكَانَ مَحْظُورًا عَلَى الْفَتَاةِ مِثْلًا أَنْ تَسِيرَ فِي الْبَاحَةِ مَعَ رَفِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَيْ لَا تَتَحَدَّثَا عَلَى انْفِرَادٍ ، خَشْيَةً أَنْ تَفْسِدَ الْوَاحِدَةُ الْآخَرَى ، أَوْ أَنْ تَتَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا عِشْرَةٌ مَرِيَّةٌ ، لِذَا كُنَّا نَتَحَلَّقُ جَمَاعَاتٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَلَاثِ فِتْيَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَقَدْ أَلْفَيْنَا مِرَاقِبَةَ الرَاهِبَاتِ ، وَإِقْبَالَهُنَّ عَلَيْنَا لِلْإِسْتِرَاكِ بِأَحَادِثِنَا . وَيَدُو أَنْ إِحْدَاهُنَّ شَاهَدَتْ عَنْ بَعْدِ وَرَقَةٍ تَنْتَقِلُ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ ، فِي حُلُقَتِنَا ذَاتِ يَوْمٍ ، وَرَقَةٌ اسْتَأْثَرَتْ بِاهْتِمَامٍ رَفِيقَتِي ، فَاسْتَغْرَقَتَا بِقِرَاءَتِهَا ، وَعَلَّقْنَا عَلَى الْقَصِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَضَمَّنُهَا ، تَعْلِيْقًا كُلُّهُ إِعْجَابٌ ، وَجَلَّهَ إِطْرَاءً ، دَغْدَغٌ كَبِيرَاثِي ، لِأَنِّي كُنْتُ صَاحِبَةَ الْقَصِيدَةِ " .

ثُمَّ تَرَوِي لَنَا السَّيِّدَةُ سَلَمَى ، حَادِثًا وَقَعَ لَهَا وَلِرَفِيقَاتِهَا ، أَثَارَ قَلْقَهِنَّ ، وَأَوْجَعَ قُلُوبَهُنَّ ، وَابْتَعَثَ كَوَامِنَ الْخَوْفِ فِي نَفُوسِهِنَّ فَنَقُولُ : " وَبَيْنَمَا كُنَّا مِنْهُمُكَاتٍ بِالشَّعْرِ ، مُحَلِّقَاتٍ فِي عَالَمِهِ السَّحَرِيِّ ، مِثْلُتُ أَمَامِنَا الرَّاهِبَةُ فَجَاءَتْ ، فَارْتَعَشْنَا لِلْمَبَاغِتَةِ الْخُرْجَةِ ، وَكُنْتُ أَكْثَرَ الرَفِيقَاتِ خَوْفًا ، وَقَالَتْ :

- هَلْ لِي أَنْ أَطْلُعَ عَلَى مَا فِي الْوَرَقَةِ مِنْ مَمْتَعٍ أَثَارَ فَيَكُنْ كُلُّ هَذَا الْإِهْتِمَامِ ؟

فَارْتَعَدَتْ أَوْصَالِي ، وَتَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي لَا أَقْوَى عَلَى الْكَلَامِ ، غَيْرَ أَنَّ " صُونِيَا " الَّتِي كَانَتْ تَمْسِكُ الْوَرَقَةَ ، تَشَجَّعَتْ وَقَالَتْ : بِكُلِّ سُرُورٍ يَا أُمَاهُ . إِنَّهَا قَصِيدَةٌ جَمِيلَةٌ عَنْ الرَّبِيعِ ، لِشَاعِرٍ مَجْهُولٍ ، تَفَضَّلِي ، وَنَاوَلْتَهَا الْوَرَقَةَ ، فَانْتَضَمْتُ نَبْضَاتُ قَلْبِي ، وَعَادَ الْهَدْوُ إِلَى نَفْسِي ، وَامْتَلَأَتْ إِعْجَابًا بِسُرْعَةِ خَاطِرِهَا ، وَثَقَّتْهَا بِنَفْسِهَا ، وَلَكِنَّ الرَّاهِبَةَ أَذْكَى مِنَّا جَمِيعًا وَأَوْسَعَ دَرَايَةً بِالشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ ، وَأَخِيرَ بِحِيلِ الْفِتْيَاتِ فَمَا أَنْ أَلَقْتُ نَظْرَةً مُسْتَفِيزَةً عَلَى الْقَصِيدَةِ ، حَتَّى تَفَرَّسَتْ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَّا عَلَى انْفِرَادٍ ، وَقَالَتْ بِلَهْجَةٍ جَازِمَةٍ لَا تَقْبَلُ الْإِعْتِرَاضَ : يَجِبُ أَنْ تَعْلَمْنِي مِنْ مَنْكَنْ الْمَوْلُفَةِ ... الْأَفْضَلُ لَكِنَّ أَنْ تَعْرِفْنَ حَالًا ، تَجَنُّبًا لِمَشْكَالَةٍ كَبِيرَةٍ . فَانْبَرَيْتُ أَقُولُ ، وَأَنَا مُتَعَجِّبَةٌ مِنْ جُرْأَتِي ، بَعْدَ الْخَوْفِ الَّذِي تَمْلِكُنِي قَبْلَ الْحِظَاتِ .

أنا المؤلفةُ يا أمي ، فكيفَ وجدتِ أشعاري ؟

فامتعضتُ واجابتُ وقد تورّد وجهها ، وكانَ حريّاً أنْ أخجلَ
أنا منها : ستعلمين رأيي فيها ، غيرَ أنني أنصحكِ أن تكفي عن هدرِ
الوقتِ الثمينِ بكتابةِ أمثالِ هذه الترهاتِ .. "

وددتُ - سيداتي - سادتي - لو أقفُ بكمُ عندَ هذا المشهدِ
المؤسي الحزن... مشهدِ الأمِ الراهبة التي لا أحوالها إلا وأحسّت في قرارة
نفسها ، بالنشوة وهي تتلو القصيدة وشعرتُ بالزهو والبهجة بموهبة
تلميذتها النجيبة التي أبدعتها ، بيدَ أنها لحرصها الشديدِ على أداءِ
رسالتها، كمربيةٍ ومرشدةٍ وهاديةٍ ، أبتُ إلا أن تغالطَ نفسها ، وتقفَ
موقفَ المتحدّي من صنيعِ تودّ من صميمها لوأنَّ ظروفها أو موهبتها
أسعفتها على أدائه... ومشهدِ التلميذة الحبيبة الوجلة المرفهة الحسنّ،
التي جُرّجتُ في كبريائها ، ولم تستطع أن تأسو جرحها فانطوتُ على
حسرةٍ وأسى ..

ثمّةُ إذنَ ... عقدةٌ تأزمُ فيها حدثٌ بينَ تلميذةٍ مهيبضة الجناح ،
معتدةٍ بنفسها ، مزهوةٍ بموهبتها ، وبينَ مربيةٍ تتقدُّ غضباً ، تزعمُ أنها
تحرصُ على الوقتِ الثمينِ أن يُهدرَ ، وهي مُلزِمةٌ على مداراته مضطّرةٌ
إلى الحفاظِ عليه ... فما هذه العقدة التي تأزمُ فيها الحدث الذي احتدمَ
فيه الصراعُ ؟ ونعني بالعقدة هنا (ذلك القسم من) المأساة الذي يبدأ
ببدايتها ، ويستمرُّ حتى الجزء الأخير الذي يصدرُ منه التحوّلُ إما إلى
السعادة وإما إلى الشقاء أما الحلُّ الذي انتهتُ إليه ، ونعني به كذلك
(ذلك القسم من) المأساة المبتدئِ ببدايةِ هذا التحوّلِ حتى النهايةِ على حدِّ
تعبيرِ أرسطو^(١) .. "

لن نعني أنفسنا بالعثورِ عليهما ، أو نتأوّه تأوّه الاسيفر من عجزنا
عن حسرِ اللثامِ عنهما.. حسبُ شاعرتنا الموهوبة ، أنها كفتنا هذه

(١) أرسطوطاليس - فن الشعر - ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ١٥٠ |

المؤونة، فبادرت لتوها الى التبسط في حديثها ، ومضت تسرد لنا قصتها لتدخل في روعنا ، أنّ الموهبة لا بد وأن تتصير ، وأن النبوغ لا بد وأن يفرض نفسه كذلك ، وأنهما سيفوزان في النهاية ، مهما لقيا من عنس ومهما اعترضهما من صعاب ...

فماذا كان مآل هذا التهديد "المقنع" الذي جابهت به الام تلميذاتها الصبايا المتحلقات اللواتي طاربهن الذعر ، واستفرغهن الوجع وران عليهن الوجوم ؟

تحيّنا السيدة سلمى مسترسلة في حديثها الشيق قائلة :
"وغادرتنا (تعني الراهبة) تسير بخطى منفعلة ، فأيقنت أنّ الرئيسة ستستدعيني لتحقيق معي ، وأني سأواجه مشكلة مزعجة ، ولكنني صممت في الحال أن أدافع عن نفسي ، وألا أقف موقف المذنب النادم على إثم اقترفه. فما هو الضرر في التغني بالربيع ، وبتأجج العواطف فيه وبتجاوب النفس مع الطبيعة النضرة المتفتحة للحياة والحب ؟ هل أنا بجرمة إذا شعرت بتدفق دم جديد في عروقي ، مع تألق أكام الزهر ، وإذا عبرت عن مشاعري بأبيات موزونة رقيقة يشبه إيقاعها تغريد الطيور هل حرام أن أحسّ بأني تحولت مع الربيع الى قلب يعشق الطبيعة والحياة والناس ، ويعبر عن هيامه بالزهور والطيور والاشجار والانهار والارض والسماء ، الأني شابة صغيرة في ربيعها السابع عشر يجب أن اعاقب . ؟

حدّث ذلك في فرصة العاشرة صباحا، وكنت في ذلك العام أتناول وجبة الغداء في المدرسة مع أختي لميس وبانتهاء الحادية عشرة ، انتهى درس الادب الفرنسي الذي كانت تلقيه علينا راهبة عالية الثقافة ، هي الأم كلاري فخرجت من الصف ، وأومأت اليّ أن اتبعها ، ففعلت ، وإذا بها ترمقني بنظرات غاضبة ، ثم تقول بنبرات حادة معبرة عن الاستياء والتهكم ، وقد أخرجت من جيبها الورقة المعلومة : برافو سلمى : لم أكن أعلم بأنك شاعرة مجيدة .. هل أستطيع أن أعلم كم ساعة أضعت في صف هذه الكلمات الكبيرة ؟

فأحسستُ بدمي يفورُ في عروقي ، ثورةً على جرح كبريائي ،
لأنني كنتُ مزهوةً بما كتبتُ ، ونظرتُ في عينيها نظرةً عتابٍ ، وقلتُ
بوضوحٍ واعتزازٍ .

إنَّ كتابة القصائد لا تأخذُ من وقتي إلا القليل ، إذا شعرتُ بحاجةً
إلى كتابة الشعر ، كما أنني لا استعملُ كلماتٍ كبيرةً أبداً ، ولا أتعمدُ
ذلك ، لأنني اعبرُ عن افكاري ومشاعري ببساطة^(٢) " وِدَدْتُ سيداتي -
سادتي - لو أمضي مستطرداً حتى ختام هذه القصة الشيقة التي روتها
السيدة سلمى في مهارةٍ وذكاءٍ وبراعةٍ ، لتكاشفَ بها قراءها ،
فتسترعي قلوبهم ، وتستفز افئدتهم ، بيدَ أنني - والوقتُ لا يساعفني -
مضطراً إلى كتمانها عنكم ، لأغريكم بالعودة إليها في كتابها ، مكتفٍ
بهذا القدر الذي أوردته ، متمنياً لو ترجعون إلى " عنبرٍ ورمادٍ " هذا
السفرِ القيمِ الممتع ، الذي سردتُ لنا فيه سيرتها الذاتية ، معتمدةً (على
التوافق بينها وبين مجتمعها ونظرتها إلى الناس) الذين اتصلتُ بهم ، أو
تعرفتُ عليهم ، فكانتُ في سيرتها شبيهةً بالأديبة الأوكرانية الموهوبة
ماري بشيكرتسيف التي كتبتُ مذكراتها لتقصَّ للناس التاريخَ الكاملَ
لإمرأةٍ ، بكل أفكارها وآمالها ، وماعانتها من خيبةٍ وأملٍ ، وما أدمى
قلبها من خسة الناس ولؤم طباعهم ، وما نعيمتُ به من جمالٍ ، وما
استشعرته من مباحجٍ واحزانٍ^(٣) ... " بيدَ أن ثمة أبعاداً شقتُ عنها
قصتها التي أوردت لكم طرفاً منها ، لا يلحقني الشكُّ في أنكم
استهديتمُ إليها كما استهديتُ ، اسمحوا لي أن أوجز لكم هذه الأبعادَ
لتغدو متطابقاً في تبيان التكوين الشعري الذي حرصتُ شاعرتنا على
تعميقه بعدَ مرحلةٍ بدائيةٍ قولها الشعر في الفرنسية ، في سن السابعة عشرة
أو قبلها بسنواتٍ حتى صدور ديوانها الثاني " نفحاتُ الأمس " .

فما هي تلك الأبعادُ ، وما للجوانب الثقافية والفنية التي كوّنتُ

(٢) - عنبر ورماد - للسيدة سلمى الحفار الكزبري صفحة ٣٦ - ٣٩ .

(٣) - الموت والعبقريّة - للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٦٧ |

شخصيتها الشعرية ولا سيما أنَّ من ((ميزة العمل الجيد - كما هو معروف - أنه يتضمن أبعاداً متعددة تتكشف للقارئ أو المتلقي كلما عايش التجربة الفنية)) .

في ميسورنا إذن ايجازها بمايلي :

١ - تأثرها بالشعراء الرومانتيكيين في مستقبل عُمرها ، (وهو ماندعوه بدور التقليد والمحاكاة) .

٢ - إطلاعها على الشعر الفرنسي في مجمله ، (وهو مانسميه بدور التشقق والتمثل والمضم) .

٣ - تبلور شخصيتها .

٤ - خصائص شاعريتها .

٥ - بروز هذه الخصائص جليلة في ديوانها "نفحات الامس" .

من ذا يشك بأن التجربة الإنسانية ليست موضوع الشعر بأسره؟

ومن ذا يشك كذلك بأن الشعراء الفحول قد استقطبوا هذه التجربة في شعرهم ؟ .. مادام الامر كذلك ، فيم نحول إذن دون المبتدئين بنظم الشعر ، الطامحين الى أن يغدوا يوماً شعراء لامينين ، ودون الاتكاء على الفحول ، ليتعرفوا على نتاجهم ، فيكملوا تجاربهم في الحياة والشعر ؟ ولا نخالهم يكتفون بهذا الاتكاء وحده ، بل نراهم يغرقون في ذواتهم ، وينظرون الى داخل نفوسهم ليستشفوا كوامنها ، ويسبروا غورها ، ويقفوا على خوالجها . ولئن عيب عليهم عجزهم عن الرؤية الخارجية ، فمبعت ذلك أن تجاربهم لم تكمل ، وأن علاقاتهم بالعالم والاشياء لم تتوطد بالقدر الذي يتيح لهم مواجهة العالم ، ورؤيته على حقيقته .

فلئمعنوا إذن في دراسة آثار من تقدموهم ، وليفيدوا من تجاربهم ، وليقبلوا على محاكاة اساليبهم في النظم واحتذائها ، ماداموا في بداية تكوينهم ، ومقتبل أخذهم بأزمة القريض . لذا لم يكن بدعاً إقبال

شاعرتنا على آثار الشعراء الرومانتيكيين ، وتأثرها بهم ، وهي بعد في فوعة عمرها وبداية تعاطيها النظم ، ولا سيما أن رواد هذا المذهب ، قد جروا على تبيان عواطفهم التي جاشت بها صدورهم ، واعتلجت بها جوانحهم ، وخفقت لها أفئدتهم ، بإحساس موهب هفهاف ، يتغلغل الى سحف الألوان فيكشف عنها ، ويبينها جليلة زهواء ، تعجب القارئ ، وتطرب السامع وتنعش الهيمان .

ولكن هل يعني هذا أن السيدة سلمى ، حين أخذ قلبها ينبض بالشعر ويهزج به ، قبزت فيه ، وقفت عند حد استلهاهم الرومانتيكيين ، والتأثر بهم ، ومحاكاتهم فيما كتبوا ونظموا ؟ ثمة عملية يدعوها الفلاسفة بعملية الصيرورة ، تلخص في أنها تقدم تقدماً طبعياً ، وأن هذا التقدم يتحقق في وقوع سلسلة متصلة من المتناقضات ، تنتهي دائماً الى التوفيق . ففي الافكار والوقائع على السواء ، ينتهي كل موضوع الى نقيض موضوع ، وهذا الأخير يتحد مع الاول في مركب موضوع ، يصون ماهو ثمين في كليهما^(٤) .

ههنا يكمن السر في إقبال شاعرتنا على الشعر الفرنسي ، وإمعانها في قراءة آثاره ، إمعان المستفيد المستقصي ابتغاء الامام بمذاهب رواده وأساليبهم في الكتابة والنظم والكشف عن سر إبداعهم .. من هنا ... من هذا ينبوع الثر الذي راحت شاعرتنا تغترف منه ، تبرز لنا ثقافتها الناضجة ، التي طعمت نتاجها الشعري في الفرنسية ، ونتاجها الثري في العربية ، بعنصر الجمال الذي لا يبرح يرسم لنا لوحة رائعة لنفسها المتشوقة التي ترتفع على قمة الفطنة والذكاء ولا إحالي مغاليا إذا أشبهتها بمدام دوستال تلك الاديبة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس في القرن الثامن عشر ، والتي أجمع النقاد على أن لها روح روسو القوية الحادة وعقل فولتير وتفكيره ... ولئن كانت روح الاديبة الفرنسية

(٤) - فلسفة الحضارة - لالوت ابشفيتسر - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي
ص |٢٦٤| .

فسيحة الآفاق نشيطة نائرة تلفظ الأفكار، وتخرج الآراء بسهولة مدهشة.
فإن روح شاعرتنا السيدة سلمى تبرز كذلك في سعة آفاقها ،
ونشاطها وثورتها واخراجها آراءها بهذه السهولة وهذا اليسر اللذين
قلما نشهدهما في شاعرة من شاعرنا اللواتي ينظمن . في الفرنسية ،
ومرّد ذلك عندي ، الى موهبتها من نحو ، وسمو شعورها الفني والجمالي
من نحو آخر ، ومن اليسير تعليل هذه الظاهرة ، إذا علمنا أنها لا تنفك
- وقد اسعفتها الى جانب لغتها العربية اللغات الأجنبية التي تتقنها ،
وفي مقدمتها اللغة الفرنسية - تمعن في قراءة دواوين الشعر ، ومطالعة
أمهات الكتب ، التي تصدر عن هذه اللغات ، وتتأمل فيها ، فتزداد
ثقافة وتعمق تجربة ... ولهذا ففي ميسورنا القول إن من أخص مميزات
ثقافتها الواسعة الشاملة التي شكلت روحها ، وماتنطوي عليه هذه
الروح ، من سماحة تمثل في دوافعها الانسانية النبيلة ، وحنانها الغامر ،
ووجدانها الاجتماعي الحي ، واندماجها الكلي في نفوس من تعرفهم
وتتعرّف عليهم .. هذا الاندماج الذي يوسم بطابع ايجابي سمح لاثوبه
كبرياء ، وإن مازجه طموح صاف هادئ ، يعسر على الكثيرين
بلوغه .

لقد ألف النقاد أن يعرفوا الشعر بأنه محاكاة متبعين في ذلك
تعاليم "ارسطو" سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر . ومعنى المحاكاة
هنا بالطبع ، محاكاة الطبيعة بالمدلول الأرسطي لهذه العبارة ، الذي على
الرغم من غموضه ، لن تتمكن - لضيق المجال - من مناقشته . إلا أننا
أيضا غالبا مانحّد النقاد يقولون إن الشعر الجيد ، يجب أن يكون محاكاة
... أي يجب أن يحاكي أو يقلد الشاعر فيه ، إنتاجا لشاعر كبير من
شعراء الماضي (أي شعراء اليونان والرومان القدماء) . وبهذا المعنى
تصبح المحاكاة عونا على عملية الخلق الادبي ، التي يقوم بها الشاعر
ويصبح النتاج القديم ، النموذج الذي يجب على الشاعر الحديث أن
يحتذيه ويقتفي أثره ^(٥) ... والسؤال الذي نطرحه هنا :

(٤) فلسفة الحضارة - لالبرت اشفيتسر - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي
ص ٢٦٤ .

هل الشاعر الحق مضطرب إلى المحاكاة في عملية الخلق التي يقوم بها؟
هنا نجد مساعداً إلى أن نهتف مع الفقهاء : للمسألة قولان ... نعتي
أنا مطالبون بالتمييز بين الناظم والشاعر ملزمون بالتفريق بين النظم
والشعر ... لذا فحين نقول ناظم فكأننا سلبناه أهم مميزاته وهما الموهبة
واحتجاب الرؤية وليس من شئ في أن من فقد الموهبة واحتجبت عنه
الرؤية فكأنه فقد أبرز صفتين من صفاته وهما الإصالة والابداع وفقد
انه هاتين الصفتين يضطره إلى محاكاة وتقليد أي شاعر صغيراً كان أم
كبيراً ... نقول : يضطر ليقيننا بأنه مهما تعاطى القريض ، وعانى
مرارته ، سيظل متطفلاً على مائدة الشعر ، وسيبقى عالمة على الشعراء ،
يستجدي عطاءاتهم ، وسبحار في دروبهم التي تضيق عليه حيناً حتى
تكتم أنفاسه ، وتتسع له أحيانا ، حتى يوشك أن يضيع في متاحها ..
لذا يجيء شعره . إن جاز لنا أن نسميه شعراً ، واهياً ، عقيماً لاروح فيه
ولاحياة ... ومبعث ذلك كله انعدام قوة . ذاته وقوة بصيرته ، وضعف
تجاربه ونزارة طبعه وتفاهة شخصيته ، مما يعجزه — لغلبة تجربته اللغوية
على تجربته الشعرية — عن الاتحاد النفسي ، بينه وبين عناصر عمله من
نحو ، ويحول دونه ودون السمو بنفسه وتجربته ، وفرض شخصيته من
نحو آخر ... أما الشاعر الحق ... الشاعر ذو الموهبة الكبيرة والقلب
الكبير ، فثمة قوى جمة تدعمه ، وتشد أزره ، تتجلى في غزارة طبعه
وقوة بصيرته ، التي تمتد في إنماء شخصيته واغنائها ، وقوة تجاربه التي
تبلور شعره وتعمقه ... هذا إذا اعتبرنا أن التجربة هي موضوع الشعر ،
وأنها بالتالي جوهره ...

هكذا نرى أن الشاعر الحق ... الشاعر الفنان، يتناهي عن
المحاكاة ولا يأبى بها ، ثقة منه بنفسه ، وإيمانا منه بموهبته ، وشعورا منه "
بنوع من الاتحاد النفسي بينه وبين عناصر عمله ... إذ نراه يشعر مثلاً

(٥) كولردج - تأليف الدكتور محمد مصطفى بدوي ص ٤٢

(٦) العبقريّة والفن - للدكتور مصطفى سويف .

أنه هو هذه الشخصية التي يقدمها في قصيدته ، فإذا تحمست هذه الشخصية فهو متحمس لها ، وإذا عاشت لحظات في نشوة الحب ، فهو الذي يعيش هذه اللحظات ، وإذا بكث أو شك على البكاء ، وإذا مرضت أو تأملت ، عانى ما يشبه المرض أو الألم . ولا يشترط في هذا الاتحاد أن يتم بين الفنان وبين شخصية إنسانية وموجودات حية ... قد يتم عند شاعر رومانسي بينه وبين القمر الشاحب أو بينه وبين شجرة تعصف بها رياح لقلب لها . ويتم عند شاعر آخر ، بينه وبين عصفور أدمت قلبه أشواك الورد " ثمة إذن بونٌ بعيدٌ بين الناظم والشاعر لا يخالي مغالياً إذا قلتُ إن شاعرتنا السيدة سلمى - بعد إن تمرست في النظم - قد تخطته ونأت عنه ، نأياً بوأها مكانة مرموقة ، اعترف بها النقاد الأجانب ، الذين أسرهم أداؤها ، وخليهم جرسه الهادئ الحنون ، فتعاطفوا مع شعرها ، لما ألفوا فيه من نبض الشعور الحي الصادق ، وما شاع فيه من أنغام حلوة عذبة ، جاءت نسيج وحدها ، لم تستمدّها من سواها ، أو تستعرها من لغة شعرية سبقتها ، أو عملت فني اطلعت عليه ، بل ساوقت فيها ، بين رؤيتها الشعرية من نحو ، وشخصيتها المتميزة من نحو آخر .

وهذا ما حدا بالاديب الفرنسي " روجيه لوكات " أن يهتف في مقدمته للطبعة الفرنسية ، بعد أن اختلته بحسن أدائها ، وأعجبته بتلقائيتها ، حيث يقول : " هو ذا شعر شاعرة في ربيع عمرها تتقد حياة مفتونة بالكون شعر ينبض به قلب سلمى الحفار الكزبري ... شعرٌ موسيقي يمتاز بطابع غنائي ، قلما الفناء لدن امرأة ... لذا فقد أمسى لزماً علينا أن نلجّه كما نلجّ حلبة رقص ولاسيما أن " العالم السحري الفاتن " الذي تبدعه الشاعرة يجتذبنا إليه ، ويغمرُ بالرؤى أولئك الذين يخالون الشعر رحلة الى أعماق الوجدان ... أوليست هي القائلة :

" إن هو أنا "

سيحيادوما

برؤانا "

إن ديوان " نفحاتِ الـامس " ينقل الينا شعراً لا يبرح جديداً ، ولا يعنو لأي مذهب شعري ، تبرز لنا فيه السيدة سلمى ريشة رهيبة ، تعي انتقاء الالوان ومزجها ، واثقة بحدسها الذاتي المبدع مطمئنة اليه . بيد ان أكثر ما يعلق بأذهاننا من هذه القصائد ، ذياك الحنان الغامر الكامن فيه ... الحق أقول إن الحنان النقي الذي لا يحس به أحد إحساساً عميقاً ، كما تحس به المرأة ، لهما عبرت عنه الشاعرة بلمساتها الندية الوضاعة ... وهذا يعني كم ستغدو " نفحات الـامس " قصائد تهفو اليوم اليها أفعدتنا ، ويلح في طلبها وجداننا ...

ما يلحقني الشك في ان الكاتب الفرنسي قد أدرك بلمحة خاطفة سر شاعرية السيدة سلمى ، واعطانا بإيجاز محبب ، معنى فنها الشعري ، ودلنا بإيماء لبقة على شخصيتها في شعرها . وما علينا الا أن نقض هذا السر الذي اشار اليه ، ونصرف هممتنا الى تفسير المعنى الذي نوره به ...

أول ما ينده قارئ " نفحات الـامس " جمال شعر شاعرتنا ورهافة إحساسها ، وغزارة طبعها وصدق تجربتها ، واكتمال صورها ... أما الجمال فكامن في بساطته ووضوحه ، وحسبهما عمقا أنها لا تبحث فيهما عن خلق التأثير ، بقدر ما تبحث عن إيجاد الصدق في التعبير عنهما ... ومعنى آخر إنها لا تبحث عن إثارة القارئ ، بقدر ما تبحث عن حفزه لمشاركتها ، والتعبير عما يتغى أن يقوله هو ، لو اتيح له موقف شبيه بموقفها ، حيال المشهد الذي تراه والحياة التي تحياها ... فهي تصور المشهد وليس فيه من تزويق الخيال ، بأكثر ما فيه من صدق العاطفة وهدوئها ، وصدق التجربة وعمقها ... فهي إذن ليست رومانتكية بالمفهوم المتعارف بل هي واقعية في روح رومانتكية وهذه الصفة في الحقيقة ، هي الصفة الغالبة على شعرها كله ، والمميزة التي امتازت بها ...

قد تنفعل بالمشهد كشاعرة ، بيد أن هذا الانفعال ، ليس جموحاً بشكلي تطغي فيه العاطفة الجياشة على المشهد ، فتفقده روعته وسحره

وبهائه ... إنه الانفعال الهادئ ، المترن الذي تحرص الشاعرة شديد
الحرص على ضبطه وكبح جماحه ، في أسلوب من الوعي ، ممزوج
بشفافية ناعمة ، يحليها ضرب من التشويق يلائم طبعها الهادئ ، ويوائم
طبيعتها الوقور .

وهنا أعترف لكم بأني - على الرغم من استلهامي روح شعرها
التي هي روحها نفسها ، وعلى الرغم من وقوفي على مضمونها ومادته
- لم أبلغ شأوها في ترجمتي ديوانها " نفحات الأمس " لما في شعرها من
روعة وجمال وصفاء ، وما في بيانها العذب من اشراق ورقة وطلاوة
... وهو أمرٌ بيهي يدركه ويعانيه ، كل من تصدى لنقل الشعر من لغة
إلى لغة ، ولا سيما أن نقل الشعر ، والشعر الرائع بخاصة " لا يمكن ترجمته
إلى الفاظ أخرى دون أن يفقد جماله " هاكم مثلاً حياً نستجليه في
قصائد ثلاث جسدت ابعاد شعرها ومقوماته ، ولخصت مادته وروحه ،
وأبانت عن رؤيتها فيه .

ففي قصيدتها " الشاعر lepoete " التي افتتحت بها ديوانها ،
فالتقت بخدينها (علي محمود طه) الذي افتتح بدوره ديوانه بعنوان
شبيه بعنوان قصيدتها ، مع الفارق أن " علي محمود طه " ظل في قصيدته
محلقاً برومانسيته في المحل الأرفع ، في حين هبطت شاعرتنا كثرة -اء (ابن
ابن سينا) مبتغية استجلاء سر رسالة الشاعر رامية إلى عونه على مثله
كنها ... مما حداها لأن تقف موقفاً يكاد أن يكون نادراً في الشعر
عربي وأجنبي ، إذ قلما تجاذب الشعراء أهدافه ، لظنهم أنه ينه
بالفلسفة وحدها دون سواها ... ولقد بدا هذا الموقف واضحاً في
الاسئلة الجمة التي طرحتها على الشاعر فكأنها تقتدي بسقراط حين
كان يطرح اسئلته على من يلقيهم في دروب اثينا محاوراً إياهم في
الفضيلة والعدالة والتقوى ، هادفاً إلى اصلاح حياتهم العقلية والخلقية ،
التي كانت مدار لائمه ومستقر مذمته ، بعد أن خامرهُ الجزع عليها ...
وغالب ظننا أن شاعرتنا حين سنح لها الخاطر في مناجاة شاعرها ،
هدفت إلى ماهدف إليه " سقراط " وشاءت - بعد أن خامرها الجزع

على ما انتهت اليه رسالة الشعر في ايماننا من ضياع وعقم - ان تحاور
اولئك الشعراء الذين فقدوا براءتهم الطبيعية وأحاساسهم بالجمال
والبساطة فضلوا عن وظيفتهم وكادوا ان يتخلوا عن رسالتهم لجهلهم
حقيقتها ، فعزمت لنزاهة نفسها ، على تذكيرهم بهذه الوظيفة ،
وحفزهم على فهم تلك الرسالة والايان بها . وبالتالي انفتاحهم على
عالم الآخرين ومسؤوليتهم حياله ، لأن مصيرهم مرتبط بمصيره ..

وكان قصارها في اسئلتها (التبیه) ... نعي تنبيه الشعراء الى
مضمون رسالتهم فحسب ، لا التوليد الذي كان يرمي اليه " سقراط "
لاستخراج المعرفة من دخيلة نفوس الذين يلقاهم فيطرح عليهم
اسئلته...

ولايساورنا الشك في هذا الفارق ، بين الفيلسوف السفسطائي
الذي تنبأت له كاهنة " دلفي " بأنه أحكم اليونان وبين شاعرنا التي
عمرتها الثقة فبسقت على الشعراء إذ تفردت بقرض هذه القصيدة .

كما أنه الفارق كذلك بين الشعر الذي يميل الى مخاطبة الوجدان
ومناجاة القلوب للسمو بها ، وبين الفلسفة التي تجنح الى محاوره العقول
والاذهان لتبصرها بالحياة وتمدها برؤية للعالم أكثر اكتمالا " ولهذا كان
الشعر وسيظل أوفر حظا من الفلسفة ، وأسمى مقاما من التاريخ "...
لنستمع اليها تسائل الشاعر هاتفة .

أأرهفت سمعك يوماً
الى موسيقا الصمت
وايقاعاتها المخملية
التي تعدل ألف أنيس ؟
أحاولت يوماً
أن تعي عطر الزهر
وتفهم تغريد الطير
وقد بللتها دموع الغمام ؟
أفي مقدورك الابتسام للشقاء ؟

أَعْرِفَتْ مَنَاجَاةَ النُّجُومِ
كَمَا يَعْرِفُهَا بَنُو الصَّيَادِ
مَنْ يَحْيَوْنَ وَلَا زَوْرَقَ لَهُمْ وَلَا شِرَاعَ ؟
أَعْرِفَتْ أَنَّ ثَرَى مِنَ الْعَدَمِ
أَيُّ وَسْعِكَ ابْدَاغٌ كَوْنٍ شَامِلٍ
كَتَلْمِيزٍ صَغِيرٍ
حَذَقَ تَلْوِينَ الْمَوْجِ ؟
أَتَمَلَّتْ حِينًا
حَيَانَ لَوْحَةٍ فَتَانَةٍ
لِغُرُوبِ شَمْسٍ رَائِعِ مَوَارِ
يَبْعَثُ كَوَامِنَ الشَّجَنِ ، وَيُثِيرُ لَوَاعِجَ الْحَيْنِ ؟
أَذْرَقْتَ الْعَبْرَاتِ يَوْمًا
وَأَنْتَ تُرَهِّفُ السَّمْعَ إِلَى ابْتِهَالِ الْمُصْلِينَ ؟
أَمْسَكَ الضَّرَّ
عَنِتْ بُؤْسَ مَنْ لَا يَبْصُرُونَ ؟
أَشْرَقَتْ نَفْسُكَ حُبُورًا
لِهَنَاءِ إِخْوَتِكَ السَّعْدَاءِ ؟
أَأَغْثَتْ فَرِيقًا مِنَ التَّعَسَاءِ
ضَحَايَا الْقَدَرِ وَالنَّاسِ ؟
أَيُّ مَيْسُورِكَ أَنْ تَعْفُو دَوْمًا
عَنِ الْإِهَانَاتِ وَالْهَنَاتِ
وَأَنْ تَشْدُو فَرَحًا مَسْرُورًا
أَلْحَانًا أَحْلَى مِنَ النَّسَمَاتِ ؟
أَعْرِفَتْ كَيْفَ تَجُوزُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ
بَلَا رَحِيلٍ وَلَا وَنَى
كَيْمَا تَرْتَوِي إِلَى الشَّمْسِ مِتْلَالَةً
خَلْفَ السَّحْبِ الدَّكْنَاءِ ؟
إِنْ كُنْتَ تَفْرُدُ جَنَاحِيكَ
لِتَجْلُوَ بِدَائِعِ الْوُجُودِ

وإن كنت تشدو بالشعر
نعم الباري والخلود
إن كان الهوى والجمال
ظمأك الذي لا يرتوي
وإن كانت الحرية حقاً
أغلى لديك من الحياة
فإن الأعياد ستكلل
أرصابك ودموعك
وستغمر الأراهير بيدائك
ألسنتُ صادقة ، أيها الشاعر ؟

*

أرأيتم كيف استطاعت الانسجام والتوافق بين لغتها الواضحة
المعبرة وبين فكرتها الهادفة الملتزمة ان جاز التعبير التي حدّدت موقفها
من رسالة الشاعر ؟
أرأيتم كيف أرسلت طبعها على سجيته ، إرسال الآمن المطئن
فأصابت الغرض ؟

أرأيتم كيف اتسمت قصيدتها بصدق العاطفة وهدوئها ، اللذين
يفضيان الى تطهير النفس والسمو بها ؟ ولم تتسم بالثورة العارمة التي
تثير الانفعال فيفضي الى الألم ؟ وتتشح بالعاطفة الجياشة المحتدمة التي
شدها يتوتر فيها هذا الانفعال ، فيؤدي الى خوف الشاعر من رسالته ؟
أرأيتم في النهاية ، كيف أفصحت عن إيمانها برسالتها .. إيمانها "
الذي يتعدى كونه تعشّقاً للكلمة باعتبارها جمالاً فنياً ، الى كونه تشبهاً
من حيث هي سلاح وجسر ."

لننحّ الى قصيدتها الثانية " فلامنكو flamenco " - أي الرقص
الاسباني - ولنتأمل هذا المشهد الحي المعبر الذي اندججت فيه شاعرنا

اندماجاً يوشك أن يبلغ " حلولية " المتصوفة .. ولننظر كيف اتحدت به
او (تقمصته) أن جاز التعبير ، فاختزلت بتعبيرها عنه ، الماضي والحاضر
معاً واستطاعت بتصويرها آياه أن تأسر " عما لم تجربتها المباشرة ، وأن
تمسك به دون أن يفلت من بين يديها ، فتكشف عنه وتجعله مرئياً
ومحسوساً في ذاته ."

لنصغ الى هذه القصيدة الشقيقة الابنية باللياقة والحركة التي
بلورت فيها شاعرتنا مقدرتها الفائقة في التصوير ، وأجادت فيها
التطابق بين أسلوبها . . . في رسم المشهد ، وبين تجربتها الذاتية ،
بين المضمون الفني المتجلي في انطباعاتها ، وبين الصورة الانخاذ المتجلية
في رسمها هذه الصورة ...

وأشهد - كما ستشهدون معي حين أتلوها عليكم - أنها برعت
في الرسم والتصوير ، براعة المصور الفنان الموهوب ، الذي يستلهم
المنظر ويحييه ، ثم لا يلبث أن ينقله حياً الى لوحته ، ليعطينا لا المنظر
نفسه فحسب ، بل روحه وجماله ومثاليته كذلك .

لنستمع الى نبض هذه الاحاسيس الجمالية التي تنتقل الى القلوب
دون استئذان لتببها وتنعشها - وتبعث فيها الدفء .

تقول : ساعرة في قصيدتها التي أهديتها الى الفنانة الاندلسية
ماريا البايسين :

ارقصي أحزانتنا السرمدية
روحي عن نفسك ، أيتها المتمردة
جنبي عنك الهم والاسى
الذين تنوء بهما أهدابك الوطف الجميلة
وفي بزنديك ، وبنانك ، وروحك
وفي رقيق أجنحة الطير وظلال الذهب
أيقظي الربيع أيقظي
ربيع عمرك يا ابنة العشرين

أرقصي ، وابعثي الدفء في الليل الرهيف
تلملمي ، ثبي ، اهتفي
فلعل الدراري الصم تهب
عجلي لغوثك .
تفني بمداعبة صنجيك
احلمي ، انتفضي ، ثوري
احتجي ، انتحي إلني في طويتك
الفن والزمن ، والقدر ، والردى
أرقصي اوصابك وأنت تأتلقين نضرة
فلعل هذا المسرح يعزبك عما نابك
دعي غداثك الزرق تهني مزهوة
كزهوك أنت يا ذات الطرف المتألى
لكأن هفيف غلاتك
وهمسات شعرك المرسل
يذكران إما جن الليل
بميسان الصفصاف الباكي وتأله
أرقصي مفاتن ارضك الجملة ، ياماريا البائسين
مفاتن اسبانيا التي تكرمين وتقديسين
فلن يفتأ الشيب يضل دربه
صوب أمجاد وطنك وعرفك .
ألا إن حياك الشجي الحنون ليفتننا
على الرغم لما ينتابنا من قلق
فدعينا نلمح ولو بارقة أمل
في نظراتك السود المخملية
أرقصي أغاريد ثراك والحانة
ألحان قرطبة المفعمة
لكأن صوت " زرياب " يتناهى إلى سمعي في أصداثها
وانه ليتناهى إلي من صميم إطار الفلامنكو
يتناهى الي على لحن القيثارة الشجي

على شدة الكلم المثيرة
على شكاة المغني النديّة
ألا هدهدي يامارياً ... هدهدي اوصابك
أرقصي وذوبي في الموسيقى
وابسطي أساريك الجهمّة
فستظلّ اغاريذ العصور الخوالي حية بفضل فنك .
يبد أني وأنا أرددُ فيك طرقي ، رغم الوردية في شعرك
ورغم جذل هذا الحفل واضوائه
ورغم شموخك وخيالاتك
اشهدك كل مساء تغاودين أساك .
أرقصي ... أرقصي الفرح الأقل والمرح العابر
مرحنا نحن المبعدين من فردوسنا
أفرعي الأرض بقدميك ، تحدي السماء
أسيلي ، أسيلي دموع الإله ١١.

*

أثمة تعبير عن تجربة شعورية أسمى من هذا التعبير ؟

أثمة تصور لمشهد ، لواقع ، لحقيقة ، أبرع وأفن من هذا
التصوير ؟

أثمة إحساس بمشهد ، بواقع ، أصدق وأعمق من هذا الإحساس ؟
لقد عرف " كولردج " الشعر الرائع بأنه " أفضل الالفاظ في
أفضل الاوضاع " اعطى مفهوماً له إذ أوجب " أن يكون لكل عبارة ،
ولكل استعارة وتشخيص مايسوغها من العاطفة ، سواء كانت هذه
العاطفة ، عاطفة الشاعر نفسه ، او عاطفة الشخصية التي يرسمها " .

ونخال أن شاعرنا ، في قصيدتها هذه ، قد حققت ماتمناه
" كولردج " واضافت الى هذه الامنية عرفانها " بخصائص اللفظ التي
تنطبق على العبارة ، ويزيد عليها التنسيق الذي يسمح لكل لفظ بأن

يشعّ شحنته من الصور والايقاع ، والذي يؤلف بدوره ايقاعاً وتناسقاً بين الالفاظ ، وظلالاً متناسقة كذلك من ظلال الالفاظ .

يشدني الشوق بعد أن آنست من قلوبكم مشاركتي في اسباب هذه المتع التي تبهج النفس وتلجج الفؤاد ، الى تسليط أضواء على ظاهرة ليست غريبة على متذوقي الشعر الوجداني الاصيل ، ولشدّ مانعثر عليها في سائر شعر شاعرتنا ، بيد أنها تجلت أوضح وأعمق وأبهى ، في قصيدتها التي أسمتها " صلاة PRIERE " ونعني بهذه الظاهرة " الأداء النفسي " أي تلك الموسيقى المعبرة تمام التعبير عن حالة شعورية خاصة التي تطبع أداء الشاعر بطابع صوتي ، تلمسه في انسياب النفس الشعري أو تهدجه ، في إسراره أو أبطائه في اندفاع النغم الشعري أو تدفقه ، في ارتفاعه أو انخفاضه .

وسترون كيف لف أداء شاعرتنا النفسي هذه القصيدة بغلائل ناعمة شفافة ، نمت عن الطهر حين يكون الطهر مثلاً ، وعن البراءة حين تغدو البراءة انموذجاً ، وعن تجربة الروح الشاعرة حين تتحد هذه الروح (بالمطلق) فتسمو ، ثم تمضي تقيّة ورعة ، تنث حمدها ، وتكشف عن إيمانها وتعرب عن شكرها لمن أفاض علينا نعمه ، واجزل لنا هباته وعطاياه ... وهنا تترأى لنا وقد انتظمت مع رفقة كنجوم الليل من أوائل متصوفينا ، ودلفت الى شاعر الهند طاغور حتى دانت في مناجاته ربه وصلاته له ..

لنرهب السمع الى هذه الموسيقى الداخلية الهامسة ، المعبرة بايقاعها وانسجامها ، عن حال شعورية صادقة ، اختصت بها شاعرتنا ، إذ طبعتها بطابع صوتها الخاص ، فانساب رهوة عذبة كانسياب نفسها الشعري ..

(٧) - كولردج ص ١٩٦

(٨) - علي محمود طه الشاعر والانسان - تأليف انور المعداوي ص ١٣١

لنصغ اليها تتممُ بحمدِها لخالقها في حنو وخشوع وتواضع ،
فتسفرُ عن موقفٍ يسمو على موقفٍ " الخنساء " الذي هتفت فيه بمن
حولها مرددة في كبرياء الزاهي بنفسه:

نعف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمدة ذخراً وكنزاً
لنصغ الى " صلاة " شاعرتنا التي احلّولت في صدورنا ووقعتها
قلوبنا :

لأنك وهبت لنا الحياة
لأنك صيرت الحبة حبات
ولسائر نعمك التي ننساها
أحمدك يا إلهي واعبدك
للعليل المدنف
الذي يتمتع من أيامه الداوية
وهو غافل عن مصيره ، كالطفل الوليد
أحمدك يا إلهي واعبدك ؟
لإنقاذ أطفالنا الصغار
من الخطر الذي لا يبرح يتهددهم
ولا يفتأ يحدق بهم في كل آونة
أحمدك يا إلهي واعبدك
للتييم المحروم من أمه
الذي يشرق بدمعه المرّ
للملاك الذي يواسيه ويلهيه
أحمدك يا إلهي واعبدك
للفقير الذي لا نار لديه ولا رماة
ليده العفة التي لا تعرف الاستجداء
لعتوره على قلب رؤوف رحيم

أحمدك يا إلهي واعبدك
للبرغم الحي الذي يتهلل مرحاً
وقد افترّ ثغره لشمس نوار
للزاهير التي تبعث فيها الأريج
أحمدك يا إلهي واعبدك
للطائر الذي يبسط جناحيه
مستعيناً بجيب قلبه الواهي
للدفع الذي تنيره فيه إماماً جهدت لياليه
أحمدك يا إلهي واعبدك !
لتخفيفك سورة آلامنا
وبعثك الأمل في افتدنا
لعفوك عن زهونا وكبرياننا
فلنحمدك يا إلهي رحمتك .

*

هل تناهى الى اسماعكم ابتهاج ينغش له الفؤاد ، وترف إليه النفس
كهذا الابتهاج ؟ أشهد أن شاعرنا عبرت في ترنيمتها الدينية هذه عن
موقف سام صور عمق إيمانها ، وصدق تجربتها الروحية ... كما
افصحت عما يعتمل في جواشها من احساس ديني وتمجيد الخالق ..

ولقد بدا الاله كما يبدو لكل مؤمن ، عطاءً اسمى ، يتوجب
الشكر له ... ولن يتحقق معنى هذا الشكر إلا اذا آمن التقاة الذين
خلصت نياتهم ، وصفت قلوبهم بضرورة الصلاة للارادة البشرية
الضعيفة ، يرفعونها الى ربهم صادقين مخلصين ، ليستجيب لدعائهم ألا
إن ((الله على قلوب الموحيين من خلقه حقوقاً خاصة يتقاضاها منهم ،
فاذا ما تجلّى لهم جذلوا واغتبطوا ، فلم يستطيعوا النطق الا بمجده ،
والتنفس الا تسبيحاً بحمده)) .

وتلك لعمرى ارفع ما يبلغه انسان ، حين يكون إيمانه هو الدافع
الاعلى لحياته ، وحين تسمو فضيلته بسلوكه فيها .. ليت شعري ...

هل الايمان والفضيلة إلا القدرة على الاحتفاظ بالنفس في ارفع
مستوى؟..

سيداتى سادتي :

طالعتم رأيتي في جوانب من شاعرية السيدة سلمى كما بلوتها
وخبرتها ، ولكم رجوتُ فيها أن تستبينوها بوضوح ، وتقفوا على
فحواها، وتظهروا على اسرارها ، وكان هواي أن أمسك عن الكلام
لئلا تأخذكم الضجرة ، بيد أن ثمة جوانب هاجتني على الإشارة إليها
كزهوها بعروبتها ، وحنينها الى مدينتها الغالية دمشق الحبيبة ، وإخال
أن لهذا الزهو مغزاه وقيمته ، ولهذا الحنين طعمه ، ونكهته ، ولاسيما
انها وقد طوّقت في الآفاق ، لم ترض من الغنمة بالاياب ، شأن شاعرنا
: " المتنبي " بل أرضاها هذا التطواف إذ عمق من تجاربها وغذى روحها،
وأمتع ناظرها ، فراحت بدورها تعكس هذا الزهو في نفوسنا ، وتشيع
هذا الحنين في قلوبنا .. تزجيها اليها في عملٍ فني رائع تبرز فيه بساطة
أدائها الذي لم يشبه تصنع أو تعمل ، تؤديه في سهولة ويسر متجنبة
موسيقاه الخارجية ، مصورة فيه ما يجيش في صدرها من أحاسيس
صادقة تنبئ عن روحها الرقيقة، فتحدث في نفوسنا إحساساً جمالياً
بمثالها ، يتجلى في مشاركتنا إياها في زهوها ، وتعاطفنا معها في
حنينها...

وهذا يعني أن ثمة توافقاً بين إحساسها وتفكيرها ، وأن ثمة توازناً
كذلك بين قلبها وعقلها ولا إخال أن هذا التوافق يجيء عبثاً ، وأن هذا
التوازن يحدث اعتباطاً ، بل إنهما ليجيئان عن دراية وفهم... إن شعرها
المنسجم الموقّع الذي ترسله منساباً على السجية ، لا يعني القارئ البتة
في تقصي مراميه، بل يسير معه سيراً رهواً ، مستمتعاً بما يقرأ ، متلائماً
معه أشد التلائم لسلاسته ورقته وسهولته ووضوح معناه ، وصدوره
عن عاطفة صادقة اعتملت في نفس شاعرتنا ، يحسّها القارئ وكأنها
تعمل في نفسه ...

أولم تنبئنا بأن كتابة القصائد ، لاتأخذ من وقتها إلا القليل ، اذا شعرت بحاجة الى كتابة الشعر ؟

أولم نخبرنا أنها لاتستعمل كلمات كبيرة ولا تعتمد ذلك ، لأنها تعبر عن افكارها ومشاعرها ببساطة ؟ ترى أولم تمتاز موضوعات ((راسين)) بالبساطة ؟ أولم تكن سمة منه ، وطابع أدبه ؟ ترى أولم يحتفظ ((دانتي)) ببساطته وبراءته أبدا ؟

الا ان البساطة والبراءة فحسب هما سمة فن شاعرتنا الاصيل وطابع أدبها العذب الجميل ... وبعد ... فلست مغاليا إذا قلت في ختام حديثي : إن الشاعرة السيدة سلمى الحفار الكزيري ، تبدو لي في شعرها كله (كالخوقة) في المسرحيات اليونانية التي " تجعل من الحديث الخاص حدثا عاما ، والتي تعمل على تغيير كل شي تلمسه .. فهي تزيد من عناصر الجمال والسمو وتقضي او تقلل من عناصر الألم القاسي .. وهذا العمل ليس من الاعمال غير العادية . إنه الوظيفة الطبيعية للشعر والوظيفة الطبيعية للشاعر كذلك " لأن " عمل الشاعر ليس في الانتظار حتى تتجمع الصرخة من تلقاء نفسها في حلقه ، بل إن عمله هو أن يتصارع مع صمت العالم ومع ما كان خلوا من المعنى فيه ، يضطره إلى أن يكون ذا معنى .. أن يتمكن من جعل الصمت يجيب وجعل اللاوجود موجودا انه عمل يأخذ على عاتقه أن " يعرف " العالم لا عن طريق التأويل والايضاح والبرهان ولكن مباشرة كما يعرف الانسان التفاح في فمه " .

أوليست شاعرتنا وقد استجابت لها قريحتها تنحو هذا النحو ؟
أولم يهزنا شعرها ، ويأخذ بمجامع قلوبنا ؟ أولم يمتزج بأجزاء

(٩) - يوربيدس - تأليف جليوت موري - ترجمة عبد المعطي شعراوي ص ١٧٥ .

(١٠) - الشعر والتجربة - تأليف ارشيبا لدمكليش - ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ص ١٧/١٨ .

نفوسنا رقة وعذوبة ؟ هكذا رأيته امضي متهللاً لمذهبها الحسن فيه ،
معجباً بطبعها الصحيح في أدائه ، واثقاً أشد الثقة بأنه صادر بعفوية عن
ذاتها الخيرة ، معبرة بصدق عن تجربتها الشعرية العميقة ...

لاغرو ان امضي متهللاً معجباً ، ولاسيما ان من يستطلع طلع
ماحوته " نفحات الأمس " كما استطلعت ويتوسمه كما توسمته سيأنس
منه ولا ريب تلك الاهتمامات الحلوة الرائقة التي خطرت في نفسها
فتوفرت على تصويرها ، حتى اوشكت ان تشبه فيها اهتمامات الامير
الفقير LE PETIT PRINCE التي صورها لنا " سانت اكسوبري " فمثلت
امامنا وهي تعبق بالبراءة وترفل بالمحبة ، وتنعم بالصدق ، وترهز
بالجمال ...

سيداتي سادتي :

كان ابن المقفع يقف قلمه كثيراً ، فقليل له في ذلك فقال : إن
الكلام يزدهم في صدري فيقف قلمي لأتخيره ... ولكم أدركت في
خلدي قول ابن المقفع وانا اهم بالكتابة عن شعر السيدة سلمى فكنت
أن انهج سمته واحتذي على مثاله ... ولكم خطرت في ضميري اشياء
واشياء كان في ميسوري أن اتحدث لكم عنها لوساعفني الوقت بيد أن
قلمي وقف للأتخيرها ، كما صنع ادينا الجهبند ، بل لأحبسها مخافة أن
يتناول الحديث فأسهب فيه فأغدو كحاطب ليل ... ولكم ناجيتُ
نفسي بأن امسي دليلكم الى الاستمتاع بجمال ماقرأت فأنشدكم كل
قصائد ديوانها . بيد أنني تهيئت ... أجل تهبتُ بعد أن لاح لعيني من
بعيد شاعرنا " المعري " وهو يشند وراء خطوي ، منبها ايائي هاتفا بي :
حذار ... حذار " فقد يضل الدليل في ضوء القمر " ...

واني لمستمحكم عذراً أذ أقضي حديثي هذا ، في ساعة واحدة
من ليلة واحدة ، وكان حقيقاً عليّ أن امضي به كما مضت " شهرزاد "

في احاديثها ، فأخرج عن نمط الرواة والمتحدثين كما خرجتُ كيما
اسري عنكم كما سرت عن "شهر يار" ...

ولكن ... من ترى يضاهيها في الرواية ؟ ومن تُرى يماثلها في
الحديث ؟ ألا سقيا لها ثم سقيا ، فقد ظلّ لسانها منطلقاً ألف ليلة
وليلة، فلم تترك مقالا لقائل .

_____ * _____

مع الشاعرة اللبنانية ((اندريه شديد)) في ديوانها ((طقوس العنف)) !..

لشدّ ما هجست في قلبي اسئلة جمة طرحتها على نفسي وانا أفرغ من قراءة ديوان الشاعرة (اندريه شديد) الذي نظمته في الفرنسية وأسمته (طقوس العنف ceremonial de la violence اية شاعرة هذه التي عاشت مأساة (لبنان) وحملت على البعد همه ، كما لم يعيشها شاعر سواها من الشعراء الذين درجوا فوق أرضه وأظلمتهم سمازه ، وفننهم جماله ، وتغنموا بخيراتہ ۴..

اية شاعرة هذه ، التي هصرت المأساة قلبها ، وأهاجت المحنة الدم في عروقها ، فصورتهما في اناشيدها الخمس عشرة ، وراحت تنسرب كالرجفة في الصدر ، وتمتج كالرقة في اجزاء النفس ۴..

اية شاعرة لبنانية هذه التي ولدت في (القاهرة) وحطت رحالها في (باريس) لا تروحها منذ عام ١٩٤٦ فأولت ظهرها منابت اجدادها .. وبالرغم من ذلك ظلّ (لبنان) يشغف قلبها ، ويشير شجنها ، ولم يخف بعدها عنه غلواء اسائها عليه ، ولا أغضت عن مأساته ، او تغافلت عن محنته .. بل كرثها المأساة ، وأهاجت المحنة الاضطراب في عطفها ، فاتسّق لها من النظم الذكيّ الرهيف ، ما لم يتسّق لسواها من شعراء العربية ثمن دهمهم الخطب ، وعانوا المأساة في عُقر دارهم ..

أتراها وجدّها التي ((لم تنم شوقاً اليه ، ولا هنت بالطعام وجداً به ، ولا ملّت الدموع فيه ، ولا ذكرتہ الا تنغصت ، ولا هنت باسمه إلا وارتاعت)) على حدّ تعبير ادبينا (الجاحظ) ؟ ..

أثرها وحدها التي استبانَت مأساته ففزعت فزادها ، وصدعت قلبها
فتناهبها الكمد والألم على وطنها الجريح ، ولم يستبنيها شعراؤنا فيأسون لها
كما أمت ، ويرثون لما يعانیه منها كما رثت ؟ ..

لعلّ مبعث هذا التفاوت ، ومأثي هذا التفرد - في رأيي - صدق هذا
الصوت المدوّي كالرعد ، الذي يهزّ الأعماق هزّاً عنيفاً .. وعنف هذا الهياج
الصاحب الذي عصف بها وغلب عليها ... وشدة وقع هذه البلوى الماحقة
في نفسها حتى كادت تصهرها ..!

ومرّة ذلك ولا ريب الى أبعاد جديدة ، وتواعث حادة من الحنين
الجارف .. الحنين المعبّ ... الحنين الموجع الذي تسرب الى اعماقها ،
وتغلغل في أطواء ذاتها ، فكان ردّ الفعل العنيف لهذه المأساة التي روتها ،
وهذه المحنة التي اطارت النوم من عينيها ..!

ولن يساورني شك في أن هذا الحنين الذي يستشعره المبعدون عن
اوطانهم المتجلى في الالتزام الوطني ، والمسؤولية القومية ، والمأثرة الانسانية
التي تداني المثل الأعلى هو نفسه (أعني الحنين) الذي لم يمتز به الشعراء
البنانيون الناطقون بالفرنسية فحسب ، بل امتاز به من قبلهم الشعراء
المهجريون الناطقون بالعربية كذلك ... اولئك الذين ظلّ طيف (لبنان)
يرواحهم ، وذكراه تعاودهم ، فيقاسون من لأوائه أفدح صنوف الأسى
والعذاب ... فكان تغنيهم بحنينهم نقطة تحوّل جذريّ في مسار تاريخنا الأدبيّ
المعاصر .. بل بدء انعطاف في عمق مضمونه وجدّته ، وجمال شكله
وروعته ..!

لأن (لبنان) - بالنسبة اليهم - لا يرح حضوراً دائماً ، يولونه محبتهم
واهتمامهم ورعايتهم ... ولأنهم لا ينفكّون مشدودين اليه ، اوفياء له ، مهما
اوغلوا في البعد وأمعنوا في الاغتراب ..!

وتلك لعمري ميزة ، كشفوا من خلالها عن ثروات روحية جمة ، عجز
نظراؤهم من شعراء العربية - في الوطن الأم - عن كشفها ، فصانوا بصديق
حنينهم ، ورقة احساسهم ، وشاعرية وجدانهم ، وعمق ثقافتهم ، غرساً جيّاً

لم يقو شعراؤنا على صيانتة وقتله ، فوقع الكثيرون منهم في شرك التفاهة ،
فدلّوا بذلك على افتقارهم الى (البصيرة الداخلية) التي تقودهم الى فهم
جوهر المأساة ، وتفضي بهم الى استبصاره ووعيه ، والتلاحم معه ، وربط
أنفسهم به ، مما أدى الى ضحالة (المضمون) ... فأخفقوا فيما نظموا ، ولم
يؤثروا التأثير المرجو في قرآنهم _ لعجزهم عن ادراك الموقف الصحيح حيال
المأساة .. وجهلهم النظرة المتأملة الواعية التي يبنون على اساسها موقفهم
... كما برهنوا كذلك على جهلهم ببرغورها ، ومعرفة أبعادها ، فأدى بهم
جهلهم هذا ، الى أن يدعوا شعرهم يطفو على سطحها .. وبرهنوا بالتالي على
تفاعسهم في التحكّم بتجربتهم ، واخضاعها لفن الشعر ، كما يقتضيه هذا
الفن من صدق عاطفة ، وصدق تجربة ، وصدق معاناة ..!

اليس جديراً بشعرائنا إذن أن يفيدوا من هذا الحنين الشجيّ النبعث
من رقة القلب ، ونبل الفطرة ، وسمو العاطفة .. ويعبوا من هذا النبع
الداخليّ الذي يفيض بالمشاركة الوجدانية الحية ، فينتفعوا بما ترخر به من
معاناة القلق ، ومعاشة الملمّة ، اللتين ساورتا هذه الروح التي اثقلتها المأساة ،
وآدتها المحنة ، فانطلقت تهتف بصوت مدوّ حيّ ، يذوب أسيّ وشجناً ..!

والسؤال الأخير الذي أطرّحه :

الا تضطلع هذه النبرة المؤسسية الحادة التي وافتنا بها شاعرتنا (اندريه
شديد) في ديوانها (طقوس العنف) بأبعاد انسانية ، فيها من القلق الصادق ،
والانفعال العنيف بالمأساة مانتشوف اليه ونفطن له؟.

الا يذكي فينا شعرها الذي طالعتنا به في لفظ متين ، وإيجاز بليغ ،
ومعنى رائع ، نارا كانت خامدة ؟ ..

الا يهيج في اثنتنا اضطراباً لم يتسّق لشعرائنا أن اهاجوه ، وهم الذي
دهمهم الخطب في مهبط وحيهم - وعانوا المأساة عن كُتب .

أترى على هذه الشاعرة المبدعة أن تنهض وحدها بهذا العبء؟..

أترى وقرّ في نفسها وحدها عمق المأساة ، وشدة خطر المحنة ، لاعلى (لبنان) الجريح فحسب ، بل على العروبة والانسانية اللتين أسهم (لبنان) ومافتي يسهم في اغنائهما والسمو بهما كذلك ؟ ..

من يدري ... لعلّ هذه الموسيقى الشجية التي تنسرب من كل بيت في هذه المجموعة الشعرية ، كافية لتفعل في القارئ العربي ، أكثر مما فعلته فيه قصائد جمّة ، هزج بها شعراء نهجوا نهج شاعرتنا ، وحذوا حذوها ..! وبعد ...

حسبي أني نهضتُ بنقل هذه المجموعة الفريدة الى لغتنا الحبيبة ، تاركاً لقارئها أن يستشفّ مضمونها ، ويستشعر في قلبه المأساة التي استغرقت احاسيس الشاعرة ، وحركت وجدانها ، فصورتها في نظيمها أروع تصوير ، يرعش القلب ، ولايستغلق على الفهم ...!

من آثار الشاعرة

اليوم السادس sixieme jorv (رواية) - باريس ١٩٦٠

وحده الوجه seul le visage (مجموعة شعرية) - باريس ١٩٦٠

طقوس العنف ceremonial de la violence - باريس ١٩٧٦

الأجساد والزمن les corps et le temps

الإهاب الضيق Letroite peau

نفرتيتي وحلم أخناتون Nefertiti et Le Reve D'Akhnaton



طقوس العُثْف

"تسألون .. لماذا لا يحدث في شعره
عن الأحلام ... عن الأوراق ..
عن البراكين العظيمة في وطنه الأصيل ...
تعالوا لتزوا الدم في الشوارع ...
تعالوا لتزوا :
الدم في الشوارع
تعالوا لتزوا
الدم في الشوارع .."
((بابلو نيرودا))

*

صراخ من أجل لبنان

=====

كيف أدعوك .. لبنان ؟
أو كيف لا أدعوك .. لبنان ؟
كيف تصرخ من أعماق أغوارك
خارج مخيمات وجماعات
وفي منأى عن تعاليم الشقاق ؟
فيأمن تناهيك الضنى في كل قسمة

من قسّات محياك
بأية نظرة تستجلي
وأية أذن ترهف سمعك
واي نداء تستهلّ ..

خيز الموت

=====

الا فلتصفّ الأعداد !

٦٠٠ - ١٠٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ - ٣٠٠٠٠٠

ألا فليقم الموتى

فما أنتَ إلاّ أعداد !.

*

ألا إن العام ليزهر الجثّة

ب ٥٢ اسبوعاً من اسابيعه

ب ٣٦٥ يوماً من ايامه

بساعات حشوده

بدقائق جحافلده

بالفصل الجديد

وقد كدّس غنائم آخر

بعشرة ومائة الف

وهكذا وهلمّ جرّاً

ينسج حلكُ التقويم .

الا فليصف جنباً الى جنب !
كل قتلة القتلة
والموارى تحت الثرى
والابرياء الذين يأخذون بثأرهم
والضحايا المقتولون
وكل القتل المقتولين
وكل القتل الصيادين ..!
ألا إن الموت ليؤخذكم يا إخوتي !
ألا إن الموت ليبلغكم بالصوت نفسه !
فكونوا هذه البقايا !
هذه الأجزاء الصغيرة من النصف الأعلى ^(١)
هذه المرق من رأس
هذه الحصاة من أفخاذ وأيدي ذكور وإناث ^(٢)
هذه البقايا التي تنضح
هذه الجثث الستة
هذه الأحشاء المخلولة !

(١) في الأصل : bustle قد تعني الشاعرة مثلاً نصفياً ، او لوحة تمثل النصف الأعلى من الإنسان - وقد تعني النصف الأعلى من جسم الإنسان .
(٢) في الأصل sexes الجنس - الذكور والإناث -

ألا فلتقطع وتر الحياة الوحيد
ولتدع نفسك تتبدد
ألا إنك خبز الموت
ألا فلتنسّق الحشود !..
ولتتظموا صفوفاً أيها الغزل
فالأشداء والودعاء
نصراء مرتابون
والمرتابون بباله .
ومن لا إيمان لهم
ولا عقيدة
لا يعون ردّ المجزرة !..

*

من تراه يبرزكم بهيكل عظميّ أو جثّة
حين دهمكم الغبار الملزم ؟ .
وأنتم أشدّ صلابة من الأشياء
وأوفر دكّة من الرماد !..
فيا أيّها الجثث انتظمي صفوفاً !
ويا أيّها المحاصرون - المهاجمون
يا أيّها المغيرون - المدافعون
يا أيّها الجلادون والمعدّبون
يا أيّها الأطفال من كل ثار

يا أيها المتحرون - السفاحون
يا أيها الفتية ، يامن لهم عيون من رصاص
أييدوا محاصيلكم
واختنقوا الماء
واطردوا الضياء
ولا حقوا بالرصاص جدرانكم وحدائقكم
فما من سجناء يا إخوتي ! .
ألا فلتمس مدينتكم مجزرة
ولتحوّل هضابكم الى ركاب جثث !
ألا فلتشقوا أزفتكم
ولتستزفوا دُوركم
ولتجزوا ظلاماتكم
ولتملوا بالنهب والسلب
ولتسخرُوا .. ولتلعنوا
فإن الزمن سيعزف لكم بها !
ألا فلتوفدوا رسلكم الى الموائد المستديرة كافة !
وقد سَمُّوا بِعُمْرٍ وَرَحِيلٍ
وليتحدّثوا باسمكم
انتم يامن لم يكن لكم اسم
وليفاضوا مستغرقين
في هدنات مناقشات
ودورة محالفات

رائحين غادين
كمكوك ساخر
ثرائين مساومين
بيننا انتم تفتنون
تطيلون الخطب او تضخمونها
بيننا الأرض تحرككم
بيننا الزمن يحرككم
ألا فليوحّدكم الموت
الا إقتلوا الأمل يا إخوتي بطريقة مؤنسة
وقطّعوا الرجاء حتى العظم
فلقد كان الانتقام اغويتكم (٣)
والحقّ فحكمكم ..
من تراه قاد اللعبة ؟
من تراه زوّدكم بالعتاد ؟ بلا حلم ... ولا غد
ولا وجه مفرد
الا إنكم لمتشرون
مادمت في هيكل الموتى
ألا إنكم لتوارون
مادمت في الرّحم الماتمي ..
*

(٣) في الأصل TRAPPE والاغوية : فخّ قلاب

أنى لكم ياخوتي أن تحيدوا عن صورتكم
فتاريخكم هو التاريخ
الذي يعكس عرقنا الحقود
يعكس مسوئنا الوسنى
يعكس سحناتنا الغاضبة ..
تافهة هي الكلمات
باطلة هي الكتابة
رغم أن اضطراب القلب مطلق العنان ..
ألا إنهم لا يعلمون ... ألا إنهم لا يبصرون .
من تراه يحرض في هذه الأماكن القذرة؟
وما الباعث البريء لهذه الجزار
وأية قرحة تفتك بنا
فتقودنا بعيداً بعيداً ؟
إلا إن أفعالكم لتأكلنا وإنها لتهلككم ياخوتي
فكفوا عن ابتعاث الموت ..

* * *

الرياح السوداء

=====

يدمر الناس الأرض
في تعبٍ جمّ
يقطعونها إلى هبات ريح

يسحقونها في هلع
يوارونها تحت الموتى
في لولب الأزمان
وفي رياح الحقد السود
والهوى المرهف جداً ..

أجساد ضائعة

=====

يا أجساداً فوق الشواطئ الصخرية
أيّ دُعر فاق موتك ؟
يا أجساداً شتتتها فأس
يا أجساداً اخترقها رصاص
أيّ هلع سبق عدملك ؟
يا أجساداً مشوّهة
يا أجساداً مرشوشة برشاش
يا أجساداً مشنوقة
أيّ جزع أنيابنهايتك ؟
يا أجساداً مخنوقة
يا أجساداً محترقة
يا أجساداً مسحوبة
يا أجساداً مقطّعة
أيّ رُعب تفتح فوق آخر رقادٍ لك ؟ ..

ألا إن سحناتك من الفزع
لتشد أيماننا إلى الحياة
يا أجساداً متحجرة
يا أجساداً جانحة
يا أجساداً ضائعة ...

الحياة المعطوبة

=====

إن الموت الذي يوحّدنا
يهب للصمت فراغاً
ويقدم للصمت صيتاً .
إن الموت يصطفي من شاهق
الحياة التي تنيرنا
وعلينا نحن أن نذوق العذاب ..

حياة وحزن

=====

حياة وحزن
والفجر لا ينير أكثر من رمال موتى
والظل لا يفيض إلا فوق أماكن خطرة
حياة وحزن
لقد تركنا الأفراد يفتنون تحت الانقراض

وسواهم يُذبحون في دروب الحقول ..

حياة وحزن

لقد دمرنا الجدران

وخلعنا ابواباً

ومزقنا خياماً

ونهبنا البيوت

وازداد موكب العنف من يوم الى يوم .

وقسا تحالف الكلام من مساء الى مساء ..

حياة وحزن

من الجانين

رجال ونساء وأطفال

رزحوا تحت الرصاص

هلكوا تحت السيف

قضوا ولم يسعفوا

وانتهوا في خنادق ..

حياة وحزن

تُرى أي عالم سيبني على ركام الجثث هذا ؟ ..

من السريير نفسه

=====

كان الولد خائر الغزم

ماين أحد أمسك زنده

ماين أحد تغلب على قتاله
ماين ذراع طوقت خصره
ماين دلالة استبقته ..
كان الولد خائر العزم
رغم عينيه المبيضتين من الدهر
رغم هذا الثغر المثقوب من الهلع
لقد مزق المرأة
وأترع جنسها بالرصاص
وعرى العجوز
وجذم نهديها !
وأعمى الشيخ
وبصق في فمه !
لقد قطع من قُذْل (٤) فتية
رتب أيدي
وجذم آذاناً
وبتر سيقانا
وقطع خلف الرموس
الأجساد المشدودة
وجرّ خلف العربات
أجساداً مهتاجة

(٤) القُذْل جمع قذال : ماين الأذنين من مؤخر الرأس

أجساداً مهتاجة

وأهان عِزِّه من لحم نديّ

وبأحيائه من لحم قديد

ارضاً وشمساً

ولوث وجهه الخاص .

*

ألا إنكم كلّكم من السرير نفسه

موالون للحقد

ولن اباعد البتّة بينكم

ألا إن عين المعذبين ترنو اليكم

حتى تميتكم ..

الأسماء المستعارة

=====

أنتم

تُرى اي مسيح وهب لكم اسمه ؟

وأنتم

تُرى اي باعث يقيكم ؟

الا أرخوا رايات قتالكم

الا اخرجوا من ثيابكم^(٥)

(٥) في الأصل LIVREE خِلمة .. وهي كسوة الخَدم الموحدة.

ألا إنكم عراة يابختوني .
فاضطلعوا وحدكم
بجرائمكم ..

هذا

=====

كان هذا ابني ابنتي
ابي أمي
هذا الشيء هواي
جدي ولدي ! ،،
لقد اتشحت المرأة بالسواد
ملتصقة بذباب
محوّمة في تموّج حُب
ومقت
تحوّم وتتمزّق
حول كتلة لحم
تنضج تحت النهار ..!

*

كان هذا حيّاً
كان هذا الشيء شخصاً
إن هذا الدم مبدّد فوق القار
وقد انتظم أمس كذلك في ضفيرة أو وردة

ونسج ثانية أمس كذلك سنة الوجود
لقد توقّر هذا القلب - الحارس
تحت الرصاص
وآوت هذه الجعبة ذات الحشرات الطفيلية
أحشاء
تفتحت فيها اللذة
وبدت فيها الحياة
واجتذبت سمة هازنة
كل لباب هذه الشفاه
وآوت هذه الاوقاب^(٦)
عيناً ونظرات
لقد كان هذا حياً
كان هذا الشيء شخصاً
لقد صنعت الروح هذه التلعة من لامبالاة
وأثار القول هذه الصورة المقاطعة .

*

لقد اتشحت المرأة بالسواد
تعروها هزة تحت العاصفة
فتصرخ في الفوضى
وتلتصق بمغنطة

(٦) في الأصل ORBITES جمع رقب .

بهذه الجانية من مظهر
بهذه اليد التي ركدت
بهذا المستنقع من نزوات
بهذه الصرّة (٧) العفنة
بهذا

((أنتَ يامنَ أدعوك
ولن تكون البتّة ...))

بيننا نحن نتحدّث

=====

من شعب الى شعب
من امة الى امة
من أسرة الى أسرة .
*

ليس ثمة هدنة
في تقلّبات العواصف !
*

إن الروح لتعثر
والأجساد تنهار
والقلوب تُرهق

(٧) في الأصل BALUCHON صرّة ثياب (او بقمحة بالعاميّة) .

بيننا يعلو القمح
بيننا نحن نتحدث ..

حياتك الوحيدة

لقد جئت ذات يوم الى الدنيا
فهل علمت اية مصادفة .. واية حشود
واية كيمياء ، واية دورات خاطر بها مجيؤك ؟

*

هل علمت اية تلاقيات عصور أسلاف
من تاريخ اماكن يعمت شطر وجودك ؟

*

وفي قلب اية تحولات ، واية قوانين
واية هذيانات ، واية تجنّبات
كشفت عن خبيثة دلالتك ؟
وبأي محال أمسى ممكناً
تزّين مقصدك ؟

وفي اية غيابات ، واية تماسات
سار الخيار ؟

هل علمت بأي انفصام
وأي جوار وأي ايقاع

وأي عون أعراس
أفلتت حياتك ؟ ..

*

لقد جئت يا أخي من بعيد .. من بعيد جداً ..
من أبعد بعد

ناهياً في أدغال الفضاء
متغلباً على الانتفاضات
مختزقاً جاذبية الأرض
ذاك ما فاجأت به ..

*

ساحباً جذورك
مبتدعاً من الهامك أقدم كون ..
ذاك يا أخي ما على حياتك الوحيدة أن تعتقك منه
وعليك أنت أن تضحّي بها
قبل أن تُشقي الحياة على النهاية أ..

أرومة الغد

=====

لقد كان هذا في وضوح الظهيرة
كانت الشمس بُزْهر
فوق مخيم شأنها فوق آخر
حين انطرح هذا الإنسان بلا تخوم
فوق خط الحدود ..

كان هذا في زمن السلم
إذ هجرت هذه الفتاة
من أجل مائدة خبز بابت
ديار الرخاء
وأخاديد المنفى
ومعسكر المهانين ..
كان هذا الشيخ *
يئذ في قرية
حقل العدو المؤقت
وما عرف صديقه .
لقد أعاققت هذه المرأة منتقمة زند ولد
ورهب هذا الولد ملاذاً للمطاردين
ملاذاً آخر من جسده ومن جسده رهينة
وفكرت تلك بالجرحي
تحت ملزمة الذعر^(٨)
لقد كتب هذا الكاهن
بعد مجزرة بلده
((حملنا حقداً نحو أي إنسان
وان سبب كل ضحية سيظل سببنا))
وكرر هذا الشيخ القول
بعد عزل ضيعته :
((نحن دائبون على التفكير
في أننا سنظل أخوة)) .
كان ذلك في معركة محتدمة

(٨) في الأصل ETAV خشبتان أو حديدتان تشد أحدهما إلى الأخرى
بواسطة مفتاح أو شبهه ويجعل بينهما ما يراد الضغط عليه .. ج ملازم .

وقد تلاقت على غرة
في الرفض نفسه
هذه الجماهير المتصارعة
فمزقت تذاكر الهوية
التي تمهر اختلافاتهم
وبدأت : متشابهة موحدة
ألا إنكم اسرقي الوحيدة
يا أعداء الحقد والكراهية
وإنكم لتقتلون الضحايا
في كل الامكنة المهددة .
تري ، ما أسلحتكم
في عالم مدجج بالسلاح ؟
تري ، مادربكم
في عالم من حواجز ؟ .
ايا كان الأمر ، فإن اصواتكم ستحمل بذرا
وإن دربكم سيبدو
بين الاراضي المدكوكة
بين أعشاب الهيجان
مهتاجا بالرجاء
فأنتم أصل الغد وارومته ..

لرأفتنا

=====

هؤلاء الذين لجأوا الى الدم
اهانوا الأرض وسخروا منها
إنها أرض طاهرة
إنها وجه ... لرأفتنا ..

لقد عاشت هظاظك

=====

تذكرُ تذكرُ
امسيات رافة
من عطايا عنائك
في الظهيرات المشرقة
ياموطناً يلتهم النجوم
ياموطن الولائم المدفأة بنور الشمس ..
تذكرُ تذكرُ
نعم عباتك
أرماتاً^(٩) فوق أغوارك
ضحكاتك في الصيف
ياموطناً حياً كأنه الكرم
ياموطناً فرجاً كأنه شجرة تفاح .
تذكرُ تذكرُ
يامن تفلق تحت الرماد
فذا لك التي تحيا
يا . تحيا لتبدع ..

موطن

=====

موطن
إن وجهك الباسم
قد القى البارود من اعلى القرحات

٩- في الأصل POVTONS والرمث خشب يضمّ بعضه الى بعض ويركب في البحر .

إن وبهلك الذي يساع ويُسرى
قد شاد أبنية من فِضة حبال بحراحت
فدفعت اليوم عنها غير الافتداء (١٠)
بل كم من ابرياء كُفروا عن هذه الأزمان
الغرارة ! .

موطن
يا من تورط اليوم في الأحقاد
يا من استفدت في الانفعالات قِوالك
يا من أبدت آفاقك
تُرى ، من أين يجي ونامك ؟
ومن سيدن على سلامك ؟ .
موطن

يا من تعدى لشجار الأسلحة
يا من تدل على الطريق بأسهم
تحت غاراتك الخاصة
يا من تُذعن لشوي الأرواح
يا من تجزئ الرب
تحت راياتك الموالية ..
موطن

أنى لك أن تنزع السلاح من تعاليم التطرف
من نصراء القوة
من رماة الاهداف القاتلة
من خيول القتال المنتمة
من المنتشين بالنعف ؟

(١٠) في الأصل RACHAT

موطن
إنك لتدمر عين شبابك
وتدك أصباح الطفولة
فأي شرف تركته لهم في الذاكرة ؟
واية ذكرى سيرعونها
من هذه المبارزات الفروسية المدماة ؟ .

موطن
من تراه كان هذا القلب السخي
هذا الوجه المضيف
هذه الحميرة من الحريات ؟ .
حذار أن تنكفئ راجعاً
اجتن كافة الظلامات
وانقل كل الكلمات
ولكي تبني غداً
استقبل لمائدتك المفتوحة
أطفالك مجتمعين ..

١٩٧٦

— * —

القلب المعقل

للشاعرة : اندريه شديد

" قد يتحطم الانسان ، لكنه لا يهزم "

" همنغواي "

" إن جسد انسان ذي قلب حي ، يرقد تحت الثرى ، خير من
كل احياء عالم ذي قلب ميت . "

" سعدي الشيرازي "

منذ حقب سالفه وأزمان غابرة سبقت زماننا ، وعلى شاطئ هذا
البحر الابيض المتوسط ، الذي يمور تحت وهج الشمس اللاهب ، ثمة
وطن صغير يجنح الى السلم ، يدعى " جيبا " احتله على غرة حاكم اقليم
متناخم ، هو الطاغية " زيزي " .. مضى اليه بجيش لجب ، مدجج
بالفؤوس مستتر بالرياح ، لابس الاقواس ، داخل في النشاب ، وراح
يتدفق في سيره مشتدا في إثر قبيلة لم تكن مدججة بسلاح ، ولا معتمرة
خودا ، ولا لابسة دروعا كي تذود عن نفسها ! ..

وذات يوم في ساحة البلد اعلن الطاغية نفسه ملكاً وجعل ينذر
كل من لا يدعن لسلطته ، أو يعنو لحكمه ، بإزهاق روحه ! .. وكان
بين اهل البلد المحتل كلهم من لا يأتلي الطاغية يرهب جانبه وحده دون
سواه فتى يدعى " كيو " تعلق الشعب به غاية التعلق لما له من مواهب

سحرية ورثها عن ابيه صانع الخزف الحاذق ، ولصرفه همه ، وبذله
قصارى جهده طوال ثلاثة اعوام في ادارة شؤون حقله المتواضع
بسماحة نفس ورباطة جأش .

منذ ان اجتاحت الجيوش العدو " جييا " أخفى أجلها " كيؤ "
ومن ثم شجعوه على اللواذ بالفرار ، قائلين له :

"انك يا كيؤ معقد رجائنا الوحيد لذا ينبغي لك ان تظل حيا واننا
نستأمنك أرواحنا مستودعينك اياها فاحفظها في حنايا قلبك ، وانصرف
بها بعيداً بعيداً ... ولئن صنتها مخبأة فيه ، فلن ينالها أذى ، او يصيبها
مكروه ، حتى اذا قفلت راجعاً ذات يوم اعد الينا ارواحنا وأنقذنا مما
نعانيه ..!"

حين شق على الطاغية زيزي أن يمسك بالفتى شحذ العزم على
محو حتى ذكراه فمضى يحرق متاعه الضئيل ، ويأتي على بعض لفائف
اوراقه ، ويقوّض كوخه ويتسلق في نهاية المطاف قمة اكمة أطلال
يتصاعد دخانها ، وهو متلع رأسه ، مباعد بين ساقيه ، واضع يديه على
جنبه ، فيصدر امره الى جيشه ، بلم شعث القبيلة كلها ، حتى اذا
مالتمت وقد ألم بقلبها الخوف ، وجاذبتها رعشة من الذعر ، صاح بها
الطاغية مزجراً وهو يحدّ فيها نظره "ان كل من سيؤي منكم كيؤ
سأزهق روحه .. أما من يأتيني بقلبه فسأجعله وصياً على العرش ..
فليجد امهركم في طلبه بحثاً عنه .."

* * *

لم يشأ كيؤ ان يصحب الى منفاه اياً من اهل البلد فهجر رفاقه ،
وراح يتوغل ممعناً في الوادي وعلى مبعده من أماكن يسيرة من القرى
المحتلة كانت امه واخوه الاصغر " باستوس " البالغ من العمر تسعة اعوام
يقطنان كوخاً ، بني من اللبن وسط الحقول فشاء كيؤ توديعهما
تضرعت امه اليه هاتفة : " امكث معنا يا بني ، فلن يأتوا الينا البتة

باحثين عنك " .. قال لها : " لقد جعل الطاغية لمن يأتيه بقلبي مكافأة ولست وحدي مالك هذا القلب لأنه يحوي آمال شعبنا كلها لذا ينبغي لي ان ابادر فأضعه في مكان امين ، واني لماض الى بقاع قصية ، حيث انفصل عنه ، فأحيا دون أن ينتابني قلق ، وسأقوى على التفكير فأسترد قواي كيما اعود ثانية ؟ قالت امه : " وماذا سيضحي جسدك بلا قلب يخفق له يابني ؟ " قال كيؤ : " انه سيتوارى في عيون سوانا لاني عيوننا ، وسنهرم الواحد تلو الآخر ، حتى تجن ساعة العودة " ..

قالت : " أين تواريه يابني ، وكيف تخفيه .. اخبرني بخبر ماغنيت ؟ " .. قال كيؤ : " سأخفيه يا أماه فوق أكمة اشجار الصنوبر الوارفة الظلال .. على كئب من الكوخ الذي ولدت فيه .. هذا الكوخ الذي وصفته لي مرات عدة .. وسأستعين بالصيغ السحرية التي اورثنيها ابي قبل ان يقضي نجه .. سأنتزع قلبي من بين حناياي ، فأركزه في رأس الشجرة الاكثر سموقا ولن يغدو في علوه ثمة الا معلقا .. وبعد ذلك لن يقوى رمح او سهم ، او حرية ، على الاجهاز علي .. ومادام هذا القلب سيغدو في منجاة منها ، فسأمسي منيع الجانب حصينا .. واني لم أفض بهذا السر الا لك ولأخي ا " ..

مكث الثلاثة في مصنع الآجر ، الذي كان " باستوس " يتدرب فيه على مهنة أبيه ، بيديه اللتين غطاهما الطين .. وراحت يدا الصبي الترابية تتشبث بمئزر أخيه البكر الصوفي الابيض وهو يهتف : " اصحبني معك يا كيؤ ! " ..

قال كيؤ يقنعه بالعدول عن عزمه : " ليس في مكتك التخلي عن أمننا يا باستوس ! .. فينبغي لنا أن ندع الزمن يعمل عمله من أجلنا وسيزيد من أعوامك ، فتغدو شيخا ذا بأس شديد ، وعندئذ سيمسي في طوقك شدّ ازري على طرد الطاغية ، واسترداد بلدنا المغتصب ... اما انا فسأتعرف على وجوه آخر ، وأعتاد أصقاعا نائية ، وألاقي العزلة التي ستعدني بدورها للمستقبل ! " .. وافقته امه بإيماء متمهلة من رأسها وهي تهتف : " ومتى نراك يا يا كيؤ ؟ " ..

أجابها كيؤ : " عندما أمسي مهياً سأسعى جاهداً الى رؤيتكم الا اذا .. " رفعت امه نحوه يحياها الوسيم الذي اوشكت ان تلم به الغضون وراحت توارى ذعرها بابتسامة مصطنعة سمت على شفيتها والدموع تتألق في عينيها، وقالت :

"مذا تعني يا بني بقولك : إلا إذا .. ؟ ""

قال كيؤ : " ادن مني أنت بدورك باستوس ، وأرهف الي سمعك ".
انحنى الصبي فالتقط السلحفاة " شو " التي كانت من قبل رفيقة لهو جدّه فعثر هذا الحيوان الصغير الذي لاعمر له ، في كف باستوس الموحلة على ملاذة المفضل ! . جلس كيؤ بين أخيه الصغير وامه ، وأخذ يدكل منهما بيديه ومضغ . يقول : " سأنتقل حتى أبلغ بلدك ياماه لأن دربه محفور في دمي ورأيت في رؤياي ... في رؤياي طويلاً في السبر والبحر ، حتى اذا ماوافيت مرفأً آمناً ، فسأرأى شتيراً الى اسفل كوخك البني فوق أكمة شجرات الصنوبر الوارفة الظلال ، فأطوف ثمة بكهف الناسك ، ومن ثم أوالي صعودي ، فأنتهي من منحدرات وعرة عذبة قاصداً بلوغ القمة التي تنتصب فيها شجرة الصنوبر الضخمة ، وسط غابة مبعثرة ، وبعد ان انتزع قلبي من بين حناياي ، سأرتقي الشجرة حتى رأسها فأصطفني الفنن الذي اودعه هذا الحمل الحي واعلقه وسط احدى الزهرات ، في موضع المدقة ^(١) الذي تولد فيه الثمرة طبيعياً تلك الثمرة الشبيهة بثمره الصنوبر ، التي لها شكل قلب انساني ولونه وهيئته ، وسيغدو في ميسوري مزجهما في أسفل ! . على هذا ، وإلى أن يئين أو أن أوبتي سآحياً غائباً ، وكأني في منأى من أحاسيسي وأحزاني ، وسأتنسم دون أن أستشعر الخوف ، نوائب الدهر ، أو أذى أعدائي ... وفي أقل من يوم ... ليتك تراعيني سمعك جيداً يا باستوس ! " .

قال باستوس : " إنني مراعيك سمعي يا كيؤ ، ولن يفوتني من كلامك شيء ! " .

وراح الصبي يدنو بدوره ، فيريح رأسه على صدر أخيه البكر ! ..

أردف كيؤ يقول :

"فإن أنت حملت يوماً وعاء شراب ، وأدنيته من شفتيك فرأيت
الشراب يضطرب فيه ويرتعش ويهتز ، ويغور ، ويفيض ...فاعلم أن
خطراً يدهمني !

فإما حدث ذلك ، فينبغي لك أن تعرض عن كل شيء ، وتبادر
إلى نجديتي !..

فاذا ما بلغت أكمي ، وألفيت لسوء طالعك شجرة الصنوبر
الضخمة طريجة ، وجسدي ملقى على الأرض جامداً لا حراك فيه ،
فاعلم أن قلبي قد هوى من الشجرة !.

ثق بما أقوله لك يا باستوس ... ان هذا القلب سيمسي إثـر
هبوطه، شديد التقلص . وليس ثمة من أعدائي من يلحظه متوارياً بين
أشواك الصنوبرة والحصى ..

كما لن تكشف عنه أنت بادئ ذي بدء .. لذا ينبغي أن لا يهن
عزمك ، أو تثبط همتك ..

وان اضطرت في بحثك عنه ، الى قضاء ساعات وإياما وفصولاً
واعواماً !.اني أتوسل اليك يا باستوس بأن لا يهن عزمك البتة ! نأج
نفسك بأن حياة أخيك ليست وحدها التي يدهمها الخطر فحسب ، بل
حياة شعبك كله كذلك ! وال بحثك ما أوتيت وحذار أن يخامرك كلل
او يعتريك ملل ، فلقد اضحى هذا القلب اصغر من حبة ، فرغت لتوك
من العثور عليها .. وحين يتم لك ذلك ، تناول القلب بين راحتيك
محتسباً حنوناً ، ثم ضعه لتوك في قدح ماء بارد ، وبادر لتوك الى نضح
الماء عليه بيديك ، في هينة ومهل ، ولاتدع عينيك تبارحانه .. بل
تحدث اليه .. كلمه بملء فيك .. وعندئذ سيستيقظ هذا القلب البالغ
الصغر ، رويداً رويداً ، وسيخفق ، ويتنفخ ويسترد شكله ! ولئن بدوت
لك فاقد الحياة جامداً كصخرة صماء فأعد إليّ هذا القلب .. أودعه
حنايا صدري في رفق وأناة وثق بأنه سينكفي عائداً الى مكانه "

..انطوت عشرون يوماً أخرى قبل ان يبلغ كيؤ حيال كوخ الأكمة
المخيم فوق أكمة الصنوبرات الوارفة الظلال ، فيرى عند سفح الأكمة
المحفورة في الشاطئ الصخري ، كهف الناسك ، الذي سبق لأمه ان
تحدثت اليه عنه ، فجاذب الفتى ذهول وهو يجيل نظره في الناسك
الكهل الذي خال أن الأجل وافاه منذ أمد بعيد.. وقد بدا له من بين
الصخور وراح يصيح به وقد رابه منه ريب :

"من أنت أيها الغريب ؟ .."

أفصح له كيؤ في البداية عن اسم أسرته من أمه وكشف عن نسبه
من أبيه ، فدنا منه الناسك ، باسطاً ذراعيه ، هاتفاً به :

"حللت أهلاً ووطئت سهلاً يا بني ! لقد كنت أوفى صديقٍ لجدك
الأكبر " راهو " الذي بارحني منذ نحو قرن من الزمان ، ميمماً وجهه
شطر الوادي الخصيب . :. وها أنذا أبلغ اليوم من العمر مائة وواحداً
وعشرين عاماً وقد بقيت رافلاً بصحتي مؤملاً ان أراه حين يقفل راجعاً
الى وطنه الذي انحدر منه أسلافه . ولكم بلغني انك آت يوماً الي يساكيؤ
كما ادركت أنني سأتعرف في محياك على سمات أ عز اصدقائي لديّ
وأوفاهم عندي وان في طوقي سلوك سبيل خلاصي في نهاية المطاف " .
هتف الفتى : خلاصك؟ أجاب الناسك الكهل : " لقد انقضى امد
مديد وانا ابتغي الانضمام الى عالم الموتى الذي يترقبني فيه جدك الاكبر " .
راهو " كما ينتظرني ربي وذوو قريبي " .. راح كيؤ يسرد للناسك
الكهل خلال السهرة الطويلة التي أمضيها معا ، كيف اجتاح الطاغية
موطنه ، ويقص عليه بواعث نفيه ، ويروي له - دون أن يفضي اليه
بمحمل سره عن سبب مكوثه زمناً تحت ظلال شجرة الصنوبر الضخمة
!.. بعد ان قدّر الناسك للفتى صمته واطمأن الى ماتعهد به ، وضع يده
المغضنة المعروفة فوق يد الفتى الملساء المسمرة قائلاً له : " تم هذه الليلة
في كهفي ، حتى إذا ما أسفر فجر الغد ، وهبت من مرقدك فامض
فسأهديك الى السبل المختصرة التي ستسلكها ، وأبينها لك وأعرفك
بها .. كما سأفضي اليك بنهج يمكنك اما انتهجته من بناء كوخ من

أفنان الشجر ولاسيما ان شجرة الصنوبر الضخمة تلوح مطلة على
أكمة انتشرت فوقها أشجار يسيرة ، وأن المكان منعزل ، بيد انها
عزلة لا يمل منها ذو القلب القوي . ولكي تروي ظمأك ، ستكشف
عن ينبوع ثر ينبثق من صخرة حمراء .. واذا إن نظرتك تنبئني بأنك
تنصرف عن الصيد متنكبا فستمسي الطيور والأرانب رفيقاتك في
هذه الحال .. ولما كان في ميسورك ان تقتات بالعشب وتصيب من
الجدور وردي الطعام ، فسأبين لك كيف تصطفي ماتصيب ،
وكيف تقتات في الربيع بنوى الصنوبر ، وتتناول ثمار بعض اشجاره
المثقلة بها . وإما بدت لك الوحدة شديدة الوطأة عليك ، لاقبل لك
بتحملها فول وجهك شطر احدى القرى المتاخمة ، فسيحتفي بك
اهلها ويطعمونك .. وفي مكتك ان ترقى اثرها نحو كوخك وانت
محمل بمثونة من القوت بزودونك بها ، مثقل بمودة يولونك اياها ،
وستعثر على شجرة الصنوبر الضخمة مستوية شاهقة بين الارض
والسماء .. وفي مقدورك على ضوء ما تحتاج اليه ، وما جلبت عليه
من طبع - ان تتسلق الذرى او تهبط الى الوادي ثانية .. كما أن في
طوقك - إذا ما نظرت من مدى مرض واعملت فكرك ان تتأمل
العالم من هذه الاكمة المشرعة على الطبيعة كلها .. وسيمسي
اخوتك في هذا المكان الاعزل نائين عنك دانين منك في الرقت
نفسه وسينخدع طبعك ، ويشتد عودك ، ويقوى ساعدك بعودتك
الى موطنك " .. في بكرة صباح اليوم التالي بينا كان كيؤ يولي
بعيدا استوى الناسك واقفا حيال كهفه وهو يتبعه بصره ، ويلوح
له بيديه مودعا .. لقد استمرأ الكهل السكينة واستشعر الاطمئنان
واحس بأن اعباء السنين والترقب قد انزاحت عن كاهله ، حتى اذا
ما أمعن الفتى في تواريه ، انكفأ الناسك عائدا الى كهفه ليقضي فيه
نحبه ، وقد سمت على شفثيه ابتسامة . . بعد ان جاس كيؤ ، مجتازا
أكمة أشجار الصنوبر الوارفة الظلال عبر المنحدرات متسلقا قمة
الجل ، مرتقيا شاطئا صخريا .. متخطيا ممرا وعلى مبعدة قصية
توقف ملقيا خلفه نظرة خاطفة ، مصوبا بصره الى الغابات التي
خلفها ، محدا نظره في القرى والدروب التي اخذت تشتد في الضيق

.. ثم عاد فرقى ، متسلقاً خاصرة جبل^(٢) مصعداً موالياً تصعيده ،
مجاها الشفق ، متوغلا في ظلمة الليل ! . وفي نهاية المطاف وافى
الفجر فصافحت نظرتة ، على مبعدة من غابة شجيرات متناثرة ،
شجرة صنوبر ضخمة نشرت افنانها مزهوة تحت اشعة الشمس
المشرقة فاندفع متوجها نحو الشجرة وقد تهللت أساريه فرحا وراح
يحيطها بذراعيه ويحك صدره بلحائها^(٣) ويفرك خده بقشورها
الرمادية وهو يردد :

"اني اوليك حمايتي وأودعك قلبي الذي يضم شعبي جميعاً
موصيك خيرا برعايته وصونه !" .. في اليوم التالي وبعد ليل قضاه
الفتى قرير العين ناعم البال استوى واقفا حيال شجرة الصنوبر
الضخمة وبعد ان التقط انفاسه وتشفع باسم ابيه ، نطق بالصيغة
السحرية التي تسعف قلبه على الظهور فانبعث القلب من صدره
غب دقائق معدودة : انه قلب ارجواني اللون ، خلا من أي اثر لدم
او جرح فتلقاه كيؤ بين يديه ، ووضع في حرز شديد في جعبة
كتانية معلقة بطرف احد سيوره الجلدية ، ثم انحنى ليخلع نعليه ،
قبل ان يشرع في ارتقاء الشجرة وهو ارتقاء لشدما زاوله والى
التدرب عليه ، وراح يتشبث بكفيه ، ويتعلق بباطن قدميه بعجرها
^(٤) وشقوق المسامير التي تكتنفها ، حتى اذا مابلغ الافنان المغطاة
بهذه الاوراق الشائكة التي تدوم خلال الفصول ، اصطفى انفسه
الاقرب الى الجذع ، فوضع قلبه في صميم مدقتها^(٥) ومالئ شـ
المخروطي ان امتزج بشكل الثمرة ! .. بعد أن استوفى عمله طسابت
نفسه له فاعتنق الشجرة هابطا موقنا بأنه سيحيا بعد اليوم دون أن
يساوره خوف او تدركه رهبة مطمئنا الى ان روح اجداده الممزقة
التي اضناها الاسى لن تضنى البتة او تبید .. ولئن خلا جسده من
قبل فإن نفسه لن تفيض لوعة بل لن يعاني الافراح الصاخبة ، بعد
ان واري احاسيسه واضحى في ميسوره ملاحظة الكون بعين اشد
وضوحا وجلاء لذا ينبغي له ان يدرب بعد اليوم روحه وعضلاته
ويعتاد عليها .. ثقب كيؤ في اعلى كوخه الذي بناه حسب
ارشادات الناسك الكهل - ثوبا واسعا هادفا من ورائه ان يستبين

منه في كل هنيهة ، هذا القلب الذي نأى عنه وابتعد .. وسيظل
بصره على هذا النحو مصوباً الى قلبه حتى اليوم الذي يلتئمان فيه ..

* * *

منذ ذاك الحين ، أوتي هو وقلبه عبقرية تقي كليهما .. اما
عبقريته فدعيت " بيز " وقد تمثلت في قزم بدين ، أصلع ، ساخر
ضحك مرح يهوى النوم ويعشق الطعام الدسم لاهم عنده اما اتخم
الا الرقاد حيثما كان متناسيا الذود عن كيؤ وقلبه واذا ما استيقظ
على غرة في نهاية المطاف فعثر عليهما وقد عذبه تأنيب ضميره بادر
الى غوث احدهما او كليهما . كان لسان القزم مندلقا وساقاه
معقوفتين وقد ادعى انه يطرد الشياطين بذنب النمر المعلق بزناره
ويعدها بشكله الضخم المثير للضحك وذؤابته ^(٦) المتأللة بضمة من
ريش متعدد الالوان تثبت بمشبك وكان حسب كيؤ ان يلدو القزم
محوماً في يسر وهو يقرع طبلته كي يستثير ضحكه فيصفح عن
مخالفاته . كان القزم - ملاك كيؤ الحارس ذا شعبية متسعة في
الاقليم ، بيد ان سلطاته كانت محدودة فلم يكن في مكنته - شأن
الملائكة بعامة - التحليق من قطر الى قطر ولا تحويل نفسه كما
يهوى . ومنذ ان تعلم القزم الهبوط في منطقة "جيبا" ومنفى كيؤ -
وهو المنفى الذي آثره على سواه - بادر الى البحث عن الفتى ، بيد
انه لم يعثر على مخبئه الا بعد أن أمضى وقتاً طويلاً وعانى صعباً
جماً . واذا بدا له المكان الذي قامت فيه شجرة الصنوبر الضخمة
عسيراً صموتاً ممعناً في يبابه انشأ يهتف .

"اني لأجدك يا كيؤ مغرقاً في وحدتك وسأتيك بزوجة
تونس وحشتك وتفرج كربك" . وقبل ان يلحق كيؤ التقصير عن
الرد عليه تولى القزم عنه مستانفاً رجيله ..

* * *

كان الناس يحتفون بالقزم حيثما حل ماضين في الصخب
هازجين بالغناء ، عابين الشراب وكانت عين القزم اليقظي لاتأبلي

تتقرى كل حشد صاحب ، عليها ان تظهر بغادة وضاعة الوجه في ريعان صباحها تكون اهلا لابنه المتبنى كيؤ .. وذات مساء بينا كان القمر يحجب الحقل اسره عطر شذي اوفر اريجاً من كافة الزهور مجتمعة ، فطلق يتوغل في الكرم منتشياً مفتوناً مقتفياً اثر عبق عذب فتوقف في نهاية المطاف ، وقد ساوره ذهول حيال صغيرة كثة تتألاً حسناً .. كانت الصغيرة التي توضع بهذا العبق النادر تنفرد بها تاييه دون سواها . احست تاييه بأن شخصاً خلفها التفت نحوه فالتفت بنفسه حيال محيا فائق الحسن ، لاشائبة فيه فحبس انفاسه وظل مسمراً في مكانه لا يريم ، وطبلته معلقة بطرف ذراعه ! جثت الصبية على ركبتيها ، كيما تمسى في مستوى الملاك القميء الغائب عن رشده ، وانشأت تقول :

"لاريب في انك القمر يزا .. فشكلك المنحوت من العاج يعلو علبة دهاني ، وكنت كلما افصح الصبح ازجي الى صورتك تحيتي وأداعبها بيدي قبل ان اهم بدهن شعري بهذا الدهان من البطم ، وتضميحه بهذا الطيب الذي قمت باعداده بنفسي " .. ولما عاد الى القمر رشده واطمأنت نفسه وهدأت أعلنت له اسمها مرحلة بمقدمه فقال لها :

"لقد جئت الى هنا من أجلك ياتاييه وعلينا ان نمضي معاً سأقودك نحو زوجك الحقيقي حاملاً اياك الى ارفع الاقدار والمصائر زارعي " لم يلاق القمر اي عنت في اقناع اهل الصبيّة - وهم من زارعي الكرم الفقراء الذين يؤملون مخدوعين في أبحاد وافرة فبادر الى الرحيل ماضياً بها وقد امسك احدهما بيد الآخر وراح القرويون يرافقونهما مصنفين مهللين فغادرت تاييه والملاك القمر القرية جذلانين، ميممين وجهيهما شطر مكان شجرة الصنوبر الضخمة الخفي .. لم يصمد كيؤ حيال هذا الجمال الباهر فراح يضم الصبيّة بين ذراعيه ، تحت نظر القمر الحنون ، ثم يدعوها الى كوخه الذي بناه من افنان الشجر ، هاتفا بها : " ان ما أملكه ملكك ، وستقاسمه كلانا ! " .. لبث الملاك القمر منفرداً يرنو اليهما وقد تهلتت اساريه فرحاً ثم انشأ يخاطبهما قائلاً : " لا إخالكما

بحاجة إليّ وسأدعكما وشأنكما كيما اسعى في اثر أولئك الذين يكابدون العناء ، وتتغشاهم الهموم وان دعواتهم لتتناهى الساعة الى سمعي !. " قبل ان يتولى القزم جثا عند جذع شجرة الصنوبر الضخمة فأسند ظهره اليها، وراح يتناول من جيوب خروجه التي افعمها القرويون بالمؤن : قارورة شراب ، وفطائر بالعسل وحببات خرنوب، وتين وعنب وسوى ذلك من الحلوى وبعد ان التهمها كلها يشهية وشبع وارتوى انزلق فوق الارض مستسلماً للرقاد معرضاً صدره للشمس ، وجعلت الاحلام تهدده والغطيط يلم به .. عاش كيؤ وتايه ساعات هائلة تعتورها أحداث صغيرة متشابهة امضيها في النهوض من النوم والبحث عن القوت ، وتناول الوجبات وقضاء ساعات القيلولة المديدة التي يصرفانها في السير ، ويطويانها بالتحب وهبوط الليل ، وظهور النجوم والرقاد فكانت أيامها التي تتلاحق دون صدام تؤلف بينهما وتتيح تدانيهما !.. رغم ذلك كله لشد ما كان يلوح للصبية ان الهم لا يفتأ يضني رفيقها، وانه يظل منطوياً على نفسه ، فكأنه كان يهاب ابداء هيامه بها ، والافصاح عن حبه لها ولطفه عليها ! .. فراحت تطرح عليه السؤال هاتفة به اتراك تهواني يا كيؤ ؟ فيجيبها : فيم لاتبرحين تطرحين عليّ هذا السؤال ؟ فتقول : حين نلبث متعانقين، يشتدّ وجيب قلبي في صدري ، بيد أني ماسمعت قط وجيب قلبك ، ولئن ردد لي ثغرك : " اني أهواك " لقد بدا قلبك غائبا عني !.. ولكي يطمئنهما الفتى ملتمسا العذر لنفسه ، أبدى لها رأيه بأنه قد أضحى لزاما عليه ان ييثها مغمرته جملة .. ولم يلبث ان قادها حيال شجرة الصنوبر الضخمة وهو يهتف :

"انظري إلى العلاء نحو ركن الفنن ذي الفروع الثلاثة فثمة ثمرة اشد احمرارا من سائر الثمار .. هل ترينها ؟ أجابته : اني اراها! قال "ان هذه الثمرة ياتايه هي قلبي المعلق ، وانه لينتظرنني ثمة ، وليس في ميسوره ان يخفق لساعة في صدري .. ولم يبلغني خفقانه لقد ادركه الصمم ، لذا ينبغي لك ان تتذرعني بلصير ياهواي ، لأن هذا القلب سيقم في كرة ثانية ، وعندئذ سيهواك كما تتمنيه ان يهواك ، وكما اتنى أنا أن أهواك !: كان الملاك حارس الطاغية

زيزي يدعى (يام) وهو الذي يقود البراكين ويؤجج الحمم ويوجه الزلازل الكامنة تحت الارض وينظم هبوب الرياح وجنونها ، ويفصل البحار عن بعضها ويرسل العواصف والانواء . انه ملاك الحرب ، ومالك ثورات الطبيعة بذل قصاري جهده في دعم النزاعات ، وتقوية النكبات في شتى الانحاء ، وقد تخطت سلطاته حدود البحر الابيض المتوسط فامتدت فبلغت الكواكب السيارة قاطبة . وذات يوم حملته اندفاعاته فانتهت به الى أكمة اشجار الصنوبر الوارفة الظلال فأتى على الاشجار واقتلع الاسطحة واجتث الادغال .. وبعد ان داخله سرور من صنيعه علا لتوه مخلقا فوافى ذروة جبل كيما يتأمل ماجنت يداه ، فدهم منخريه الواسعتين القويتين على غرة ، عبق نافذ عذب لذيد ، ثابت صلب ناعم أخاذ في الوقت نفسه .. انه عبق على غاية من الجودة والندرة ، واذ وآثار ائله هذا العبق وثر ذهوله راح يستف الهواء بملاء رثيه ملتذا به نشوان ، فلونت نظرتة نشوة رهوة ، فتوقف ، ثم أنعم النظر محققا الى رأس شجرة الضوء الضخمة ومضى يلوب مستقرنا مصدر هذا العبق اللذيذ الذي أفغم الجو بأريجيه الشذي فوق بصره في الهنيهة الاخيرة على ضفيرة دكناء مصفورة ، ولما أعجب بتألق هذه الضفيرة الحالكة السواد وطن نفسه على ان تمسي الصبيبة جارية الطاغية زيزي ، وأن يحثه على المبادرة بتوجيه جنده للقبض عليها واسرها .. ولكي يتجنب اي تردد او تأجيل من جانب الطاغية ، سيؤثره بالضفيرة الثمينة التي لن يصمد حيالها انسان فراح لتوه يلوب بحثا عن الوسيلة التي يستولي عليها بها واخذ يحوم حول تاييه وهي تخطر متنزهة على مقربة دانية من الشجرة فامتزج بالريح وشرع يقوِّض الكوخ وعلى هذا النحو حال دون ضحيته ودون اي غدو او رواح يتاح لها ، ومالبث ان جعلها مرماه وهدفه مضيقا عليها الخناق بالنسمات الفاترة آنا ، محاصرها بالنسمات القارسة تارة ، مالتا أذنيها باللفحات اللاهبة طورا نجربا دون جدوى النفاذ بين طيات ثوبها الاصفر الضيق .. واذ ادركتها من هذه النفحات وتلك اللفحات المتعاقبة رهبة جاذبتها من مرأى الكوخ المتهدم رعشة فطفقت تهتف :

كيؤا كيؤا !

بيد أن كيؤا كان في منأى عنها ..

وحين استشعرت تهديداً غامضاً يدهمها لاذت بالفرار
لاتلوي على شيء ومالبث (يام) ان اشتد في إثرها .. وبينما كان
يتهددها ويخادعها مثيرا الريح و مهدئها ، مبعثرا ريش الطيور التي
راحت تدف بأجنحتها محومة حولها دانية منها كان يجد مشتدا في
طلبها ، فضاعفت من خطوها ، وانطلقت تعدو على امتداد نتوء
صخري فزلقت قدمها فتشبثت بالنتوء ثم رقتة فوافت قمة اكمة
فهبطت اليها وهي لا تفتأ مطاردة تقفو أثرها تلك الريح المثارة التي
هاجمتها عتية ، آنية عاصفة وفي نهاية المطاف رفع (يام)
الصفيرة السوداء عالياً ثم فصلها بهبة ريح اصفى من موجة من
مستوى قذال^(٧) تاييه فحملتها زوبعة وبادرت تعربها قن الجبال ،
وسفوح الهضاب ، فراحت الصفيرة المزخرفة تتلألأ في الافق مدومة
متذبذبة ومالبث هذا الهدوء المطلق ان هوى بالصدمة نفسها فران
على مقربة من شجرة الصنوبر الضخمة !.. القى (يام) من شاقق ،
الصفيرة السوداء عند قدمي الطاغية الذي كان متربعا وسط جواربه
في فناء داخلي من أفناء القصر ، فبدا لأنظار الجالسين اشبه بمحارب
معتمر خوذته .. هتف (يام) : " اني اتقدم بهذه الصفيرة هدية مني
اليك !.. وهي صفيرة تملكها صبية من بلد غير بلدك ، وتلك الصبية
أبهى جمالا من سائر نسوتك ناهيك عن ان النجوم دونت اسمها في
لوحها منوحة بانها ستنجب لك وريثا يخلفك في المستقبل فبادر
لتوك الى ارسال ثلة من جنك ومرها أن تأتيك بها دون ابطاء " ..
اشحنى الطاغية زيزي فتناول الصفيرة الكثة ووضعها على ركبتيه ،
وراح يجسها ويداعبها بيديه فعبقت بالعطر ، وتنسمت بالطيب !..
انها لضميمة عطر يضوع شذاها بأريج عبق فواح ، جعل الطاغية
يديم النظر فيها بعينين نصف مغمضتين وقد ملأت اللذة اعطافه ،
وماعتم ان هتف : " اني ابتغي تلك الصبية " . قال (يام) : " احشد
إذن الجند ، وسأزودهم بتعليماتي ، وليتخذوا اماكنهم في الميدان
بعناد خفيف .. ثم ليتوجهوا نحوها بخراهم وسيوفهم ، وأقواسهم
وسهامهم مرتدين معاطف صوفية فوق مآزرهم ، معتمرين

خوذاتهم ، لأن الجو ثمة قارس منذ غروب الشمس ! ان تلك الصبية تحيا وحيدة في منأى عن حماية ذويها ، ولعلها منذ رحيلهم عنها ، راحت تؤلب عليّ قريتها او لعل زوجها الذي دعته كيؤ قد آب اليها " .. هتف الطاغية وقد جاذبته رعشة : كيؤ !.. قلت : كيؤ ؟ أجاب (يام) : أجل ! انه حقا كيؤ الذي دعته وانا انصت اليها وهي تناديه : كيؤ ! كيؤ !.. " ولكي ينجو الطاغية من هذا العدو الذي لم يجده اقتفاؤه اثره نفعا ، او يصب فائدة .. وفي سبيل فوزه بضربة واحدة ، بزوجة ، دل الساعة شعرها الفاخر على انها ذات حظ من حسن وجمال ، ارتسمت على ثغره ابتسامة رضى عريضة ..

* * *

مضى الجند في حشد متراص ، وبعد ان ساروا وأبحروا ، وصلوا على مرأى من شجرة الصنوبر الضخمة .. لبث الزوجان متعاقبين حيال الكوخ الذي أعيد بناؤه ، وكان شعر الصبية المبعد يلامس كتفيها .

قال كيؤ : " إما بلغ شعرك ركبتيك ، سنضفر معاً أقوى ضفائره وستمسى دلالة على عودتنا ! وسأطيح بالطاغية ، وأعيد الأقاليم المحتلة إلى أهلها ، ولن أخلّ عنك ياتايه ، وان اليوم قريب وسنعود وشيكاً ..

لقد أنفقا وقتاً هائلاً حلواً ، فدعيا المساء يرين عليهما وراحا يتناجيان ساهرين ولم يلبثا ان اضطجعا تحت ضوء القمر مستمرين الرقاد في دعة ..!

* * *

بيد أن الجند أتوا الشابين الغافيين على غرة في موهن من الليل ، فانقضوا عليهما بشراسة ، ساعين الى التفريق بينهما فاحتجزوا تايه ، وجروها بعيداً ، رغم صراخها وانها لها عليهم خدشا بأظفارها !..

ولكي يلحق بها كيؤ ذائداً عنها ، انحنى عليهم يوسعهم ضرباً يجمع يديه ، وطفق يهشم أضلاعهم ، ويحطم أنوفهم ، ويردهم على أعقابهم . فهاجمه أحدهم بحرته وطعنه آخر بظهره ، بيد ان ضرباتهم

القاتلة التي صبوها عليه ، لم يبد أنها فعلت به فعلها ، فلم
تظهر خلال ثيابه الممزقة اية قطرة دم ولا بان اي أثر
لجرح ..!

لقد هزمت تاييه بكثرة الجند الذين تألبوا عليها ، فكما
لتوهم فاهما ، ووثقوها بالحبال ، وحملها احدهم على كتفيه القويتين
فتوارت وسط حراسة قليلة العدد ، هابطة نحو الشاطئ ، على
امتداد دروب عزلاء ، حتى بلغت سفينة كانت في انتظارها .. كان
كيؤ يقاوم الجند وقد تملكه غيظ شديد فيرد هجماتهم وينهال
عليهم بدوره بعضاً ذات عقد جمّة أشبه بدبوس فأحد فيه جندي
نظره بعينين جاحظتين وهمّ برميّه بسهام وهو يهتف : " ياله من
شيطان ! مامن انسان يقوى على الاجهاز عليه ! " . اما الجند فقد
جمّدهم الذعر حيال هذا السحر ، فأشقى بعضهم عليه
بالسوط فضربه ضربات متتالية ، وانصرف متقهقراً ،
ورغب بعضهم الأتيان بعمل باهر ، يمسي في مقدورهم
التباهي به ، فتألبوا اعداداً حوله ، وأمسكوا به بسواعدهم ،
وانتهوا الى كبّح جمّاحه ، وربطه موثقاً الى شجرته ،
ثم اعتزموا التخلي عنه مقتنعين بأنه لن يلبث ان يهلك
جوعاً ..

وقبل رحيلهم ، عاد آخر رامي سهام منهم على قدميه فغرز
سيفاً في موضع قلبه فتغلغل السيف دونما عائق وخرّ الفتى فوق
الثرى صريعاً. لقد أوهنت الضربة من عزيمة كيؤيد أنه ظل سليماً
معافى ، فراح يتبعهم بصره وهم يولون هارين ، مدّخرين كل
قواهم ..

* * *

استقبلت تاييه في بلاط الطاغية زيزي بأبهة
وجلال وجعل يعلن للملأ ان الافراح ستدوم
أياماً ثلاثة ..

كان الشعب باديء ذي بدء راكباً هواه مبادراً
الى تلبية الدعوة ، فلم يمكن ردّه ومالبث ان ارهق عسرا
مختللاً مالا طاقة له به ، مترقباً خلاصه من نير
الطاغية بعد ان استنفذ اذعانه له ، واجتذابه اياه ،

مؤملاً تقديم الشراب له واطعامه ، فالتأم شمله محتشداً حول القصر ..
نخست الوليمة - التي أقيمت حيال واجهة ذات دعائم - بيزي الطاغية
ولفيف من المحظوظين ذوي الشأن ، وقد ارتدوا مآزر موشاة بالذهب ،
فعوّل الطاغية على أن يتوج غبّ الفراغ من الوليمة ، وان يظهر
للجمهور " الجارية الكبرى " ..

بيد ان تاييه عزفت عن الظهور متنكبة ، فلم يشأ زيزي بادیء
ذي بدء قسرهما عليه ، فهجس في خاطره ، غمرها بالهدايا ،
واستدراجها بها متعجلاً اذعانها لإرادته .. اما اذا ركبت رأسها
وعاندت في تأييدها فسيعرف أثث كيف يدعها تعنو له وتخضع اذ
يعمد الى معاقبتها بقسوة ويقسرها على الاذعان .

كانت وليمة الطاغية حافلة ، جديرة بوليمة ملك ، اذ قدّم فيها :
الاورز ، والبط والحمام ، والسمانى ولحم البقر ، والسّمك النهري ..
وضعت كلها في أطباق معدنية ثمينة ، والى جانبها خضار تعلو كالحرم ،
وأكوام ثمار متعدّدة الالوان حلوة المذاق ..

مضى الندل يحملون أباريق اللبن الثقيلة وجرار الشراب دائبين
على ملء اقداح زيزي ورجال بلاطه ! . كان زيزي يبدو مشرق
الاسارير لمستقبله .. مستقبله الظافر الذي يوشك ان ينهي به تنويجه ،
بعد ان يفلح في محو بريق هذه الصبيّة العنيدة المتمردة فكان يهمهم بينه
وبين نفسه :

حسبي لكي أدعها تدعن لي ، قليل من قرعها بالعصا ، ويسير
من ضرب عنقها ، المقدّر ببراعة ، ونزر من قطع لسانها وطفيف من بتر
يديها ! اما ما تبقى فمحو كيؤ من الوجود .. ذاك الذي لا يداخلىني
ريب في اني سأدركه ان عاجلاً او آجلاً .

بعد ان اكل الطاغية وشرب صجبة مدعويه جعل يتصفح بعينه
عجلان الجمع الحاشد حياله ، وهو دائب على تقسيم الاحياء من هذا
الحشد ، فجاذبته على غرة رعشة :

إن صورة كيؤ هذا الذي لا يقهر ، توشك ان تمثل وسط هذا الحشد ، فمؤر يده فوق جبينه ، كيما يحجب هذا الوهم الذي ساوره وطفق يحني رأسه كيما يطرد عنه هذا النذير المفزع الذي يدهمه بيد أنه كان يضيق ذرعاً بكلمات قادة جيشه وهم يرددون على مسمع منه : " لن يقوى اي جيش من جيوشنا على انتزاع حياة كيؤ ، لأنه يملك سلطة تدعه نخالداً " فراح يطرح على نفسه سؤالاً : هل ثمة ريب في أن تاييه كانت على بينة من أمر مفتاح اللغز ؟. وهل ثمة شك في انني مضطر سواء بالقوة أو بالخديعة والغدر على انتزاعه منها ؟.

في اليوم الثاني من الحفل ، وفي دهشة الحشد وذهوله ، وبين تهليل بلاطه وهتافه توج زيزي نفسه بتاج الملوك الذي تعلوه أفعى ، ثم بعث بمن يأتيه بتاييه .. بدت تاييه في نهاية المطاف مطوقة وبهدوء ، بل بعنف استاقها وصيفاتها اللاتي تلقين الامر بمرافقتها حتى يبلغن بها مكان عقد الزواج فألفت نفسها فوق السدة الى جوار الطاغية . فلما اتخذت مجلسها اندفع يقول :

" اني معلن للملأ جميعاً انك ستمسين جاريتي الكبرى " . احتفظت الصبية وقد علاها شحوب رغم خضابها ومساحيقها بجمودها ، كأنها تمثال مزوق وهي مطبقة الشفتين ، غائبة النظرات .

غمرها الطاغية في اليوم التالي بهداياه ، فقدّم لها خواتم لكل اصبع ، وحبابها بعقود من جواهر اللازورد واليشب ، والعقيق الاحمر ، وآثرها بجلل مموجة شفاقة ناصعة البياض ، ولم يدع شيئاً لإيجاد به عليها .. كما أمعن في اغداقه عليها هبات آخر ، فألحق بها حلاقاً وضاعف لها الوصيفات والوصفاء وجهز حجراتها بأرائك من الخشب الثمين . بيد انها ما برحت تنظر اليه غير آبهة به ، كما دأبت على العزوف عن الطعام والنوم ولم تفتح فاهها الا لتتوسل اليه بأن يعيدها الى فقرها ، ويردها الى حبيبها ..!

مضى الطاغية يغرق في هباته السخية ، واعداً اياها بأن يشق لها
بحيرة حيال حجراتها ويعدّ لها زورقاً اخضر ذا جوانب معقوفة كيما
تنزه فيه في برودة الفجر ونداوة المساء !. بيد انها ظلت ممعنة في عدائها
له ، شديدة في جفائها وعنادها ، فانتابها وهن أخذ يزداد عمقا ولم يعد
محيّاها الداهل المتصلّب يعبر الا عن اساهها وإبائها .

ولما أعيا الطاغية الامر جعل يستعين في نهاية المطاف بخدمات
(هبيي) طبيبه الساحر قائلاً له :

"لقد بذلت لها قصارى جهدي وأفضت عليها كل ما أملك من
حظوة وتكريم ، وآثرتها بكل مالدي من هدايا ، بيد ان مزاجها لا يتلي
كثيراً وانها تعاند في صفتها .. لذا ينبغي لك ان تصرف عنايتك اليها ،
فتدبر لها دواء ينسيها مايشغل فكرها في هذه الآونة !".

ابتدع الطبيب الساحر (هبيي) مستحضراً صنعه من مسحوق
الخشخاش^(٨) وأرفقه برقية^(٩) وهو مزيج يحث العليل على الاستغراق في
النوم ويدعوه اليه ، فينجو مما يعاني من هم شديد يلوعه ، أو عذاب
أليم يحضه ، ويفضي به في نهاية المطاف الى الثثرة وكثرة الكلام ..
قاومت تابيه المستحضر بادئ ذي بدء ثم لم تلبث ان انزلت مخدرة في
انكسار ووهن الى رقاد مضطرب مزعج وأخذت الكوايبس^(١٠)
والحمى تززعها وجبينها وعنقها يدبقان بالعرق ، وعراها هذيان
فكانت تضرب الاشباح بكلتا يديها طاردة اياها جاهدة في ارغامها
على الابتعاد عنها ، وكانت تهتف في نومها : "هلا أتيت الى نجدتي
يا كيؤ !

انك لن تستحوذ على قلبك !

فدعه في موضعه فوق الشجرة !

والا أنفذوا فيك سهامهم .

وأحذروا دمك .."

وحين تستيقظ وقد تملكها ذعر تصوب بصرها الى وصيفاتها
بعينين زائغتين فتقصيهن عنها ، وتمضي مندفعة صوب السطح في
حركات مضطربة قلقة ، وتأخذ ثمة بالهتاف عبر الفضاء بصوت جهير :
" حذار ان تدنو يا حبيبي ! لذ بشجرة الصنوبر الضخمة وكن يقظا فوق
شجرتك طوال ليلك ونهارك .. ولئن قوَّض أعداؤنا مأوى قلبك ،
فستقضي نحبك قضاء مبرما لارجعة لك منه ! "

ظل الطاغية زيزي دؤوبا على ارجاف سمعه اليها حاشدا لتوه
صفوة مرافقيه واذ تهلل وجهه بشرا ، راح ينبئهم بنصره الوشيك
الشامل على كيؤ ، وهو يهتف . "

بادروا اليه ولا تتأقلوا عنه ، واقتصروا على حمل الفؤوس فحسب
.. وإما بلغتم مكانا معينا فلا تحفلوا بالفتى ، بل اقطعوا الشجرة وانكم
مدركون ما عنيت وان مهمتكم تتلخص في قطع شجرة الصنوبر
الضخمة .. "

* * *

غيرت أعوام خمسة، منذ ان رحل كيؤ وقد أوشك اخوه الغر (١١)
باستوس ان يبلغ الرابعة عشرة من عمره .. صار باستوس خزافا حاذقا
دربا في صنعته ، بارعا في خفة يده جاب صيته البلاد أبعد من أبيه ،
صرف عنايته الى صنع قوالب وتمائيل من طين او سواه ، وكانت ارض
مصنعه ، ورفوف جدرانها ملاءى بأوان فخيلة وأوعية منتفخة ، واقداح ،
وأطباق ، وأباريق ذات عروة أو دون عروة وقصعات وجرار .. اما
سلحفاته (شو) فما فتئت حية ، مما ادى الى عسر المرور خلال هذه
الاشياء كلها ..

كما اشتملت حجرته على موقد نشطت له امه وحرصت عليه ،
وقد همّت الساعة بتناول وعاء شراب ذي فتحتين عريضتين وهي تقول
لابنها :

" انظر يا بني ، انه اجمل طلاء خزفي أفلحت في صنعه حتى يومنا هذا واني لأود لو تكون البادئ بالارتشاف من هذا القدح .. وما ليبت ان انتزعت سدادة محكمة من قارورة في مصنعه حوت شراباً مزوجاً بماء الشعير وعصير البلح ، سلف عليه زمان كاف فقدم وحسن ، وطفقت تغط سبابتها في زيد الشراب ثم تذوقه وهي تهتف منتشية : " ياللكهة هذا الشراب يا باستوس ! لئن قفل كيؤ راجعاً فسأملأ لك منه قدحاً ترشفه .. مدّ باستوس اليها القدح وهو ممسك به بين راحتيه مزهواً فخوراً بيد أنه ما إن لامست شفتاه اطراف القدح حتى احتاج الشراب فيه وثار فائراً واخذ يتساب فوق يدي الغلام مندلقاً على الارض . القى باستوس القدح بعيداً فتحطم قطعاً فصاح : " ان اخي لفي خطر وينبغي لي ان امضي لنجدته " .. ارتدى ثياب السفر التي مافتت معدة وانتعل حذائيه ، وملاً جعبته بالأطعمة ، ودس فيها رفيقته السلحفاة (شو) ومالبث ان قبل امه ، وتناول عصا غليظة ذات عقد وانطلق لايلوي على شئ ! ..

* * *

راح باستوس وهو يسلك الطريق المفضي الى شجرة الصنوبر الضخمة يكثر من الكلام ويكرره ويغرق في احلامه ويمعن في اوهامه وكانت كل مرحلة يقطعها ترسم في رأسه وترتقم في تخيلته اجاز وهو يسعى في صعوده ويؤيد الخطى يقفوا اثر كيؤ شطرا من فلاة مقفرة ، وركب متن زورق دانيا من موطن امه فكانت هضاب شجر اللوز والتين والزيتون تتالي وتتابع فوافى في أواخر ايام قليلة ، حيال كهف الناسك وقد كان خالياً .. فبعد ان قضى الناسك الكهل نجه ، اثر زيارة كيؤ له بقليل واره الريفيون التراب في ثرى قرية صغيرة متاخمة ، مجتمعين علي ان عظام الكهل الحكيم ستخصب أرضهم . ومالبث ان انطلق يتسلق متوقلاً^(١٢) مغداً في سيره عجلان ، فوافى آخر أكمة فاقتعد صخرة سوداء ثم استوى واقفاً على اصابع قدميه ليتبين شجرة

الصنوبر الضخمة فتعرّف على الاكمة التي لم يلف اية شجرة نبتت فوقها . ثم عاود سيره حثيث الخطى فلم يعثر على شيء فأخذ صدغاه يدقان وراح جسده يرفض قطرات عرق ضخمة .. ولكي يتدفق في مشيته تخلص من جعبته ، متناسيا وجود سلحفاته متوارية تحت الاطعمة .. بعد ان تخفف من حملة مضى واثبا صوب المرتفعات وهو يتقرى الافق بعينه بيد ان الشجرة لم تبد له قط . وقبل ان يقطع آخر درب شديد الانحدار التقط انفاسه تحت اكمة ثم وثب متقدما فرفع بصره على شجرة الصنوبر الضخمة ملقاة على الأرض .. وحين دنا منها بانث له فيها شجة ضخمة واضحة في صميمها ، تقطر دما من جذعها المشقوق .. وعلى خطى يسيرة منها ، ترقد جثة ممددة ، تعرّف فيها على جثة أخيه كيؤ التي مانفكت طرية .. فهرع اليها وهو ينوح متجهاً ، ثم جثا على ركبتيه ، ومضى يداعب اليدين المتيسيتين المتصلبتين ، ويلامس الوجه الذي علاه شحوب . وبعد امد .. امد مديد ، عثر باستوس من خلال دموعه التي ذرفها على ابتسامة خارقة مرتسمة على شفتي اخيه البكر كيؤ فأعادت الابتسامة الى ذاكرته قول أخيه له ذات يوم : " ان قلبي سيزداد تقلصا في هبوطه ولن يتيسر لأعدائي ملاحظته بيد أنه ثمة ! فابحث عنه دون ان تهن عزيمتك او تثبط همّتك .

صنع باستوس زلاجة من افنان مكدسة فربط بها كيؤ وماعثم ان سحبها حتى بلغ بها قمة الجبل ، ثم ادخلها مخبأ صخرياً فأبقت الثلوج الدائمة جسده فاتر الحياة الى حين ولم يلبث ان انكفأ هابطاً نحو موضع الشجرة ، وراح يرود كل ركن ويقلب كل حصاة ، ويزيل اشواك الصنوبر ، وينقل كسرات الخشب ، يأخذ خلال بحثه بتنظيم وجوده رويدا رويدا .. غيرت ايام وانقضت فصول .. استمرأ باستوس فيها المكوث وشغف غاية الشغف بوجوده الخفي فكان الاكتئاب يدركه حيناً والغم يساوره تارة ، ويستغرق طورا في اساه

مستشعراً ان شبابه يفلت من بين انامله فيسلمه الى القنوط
ويبعثه على الياس .. وكان صوت اخيه يند منه عنيفاً آنأ حاثاً اياه على
ان يصنع له شيئاً مردداً قوله : " انه حظي وحظ شعبك كله اللذان
يتملكانك ، فأمن بهما ياباستوس ، وستنتهي الى العثور عليهما كامنين
في قلبي .. "

لقد ولد امل باستوس في تلك الهنيئات ، فعثر على قواه التي
افتقدها ، وركن الى سلحفاته (شو) التي استعادها فوطن نفسه على
موالاة بحته .. !

* * *

كانت ضفيرة تاييه مبعدة ، وقد علقت الساعة بمشجبها بعد ان
آثرتها وصيفتان بكل ماتدخران من عناية ، فغسلتا الشعر الأثيث ^(١٣) في
النهر ، وغمستاه بالزيت المعطر ودهنتاه بدهن الشعر المطيب .

آب الحارس القزم بيز من احدى رحلاته البحرية التي أكل فيها
وشرب ورقص ماطاب له ، وأفاض في لقاءاته ماوسعه ، وراح يخطر
متنزهاً في الحقل المتاخم ، ويتوقف عند ضفة القناة وقد غمر رأسه
بالريش الكابي ، ووضع يديه على وركيه ، وانحنى فوق شعبة النهر ،
فترأت له صورته القميئة المتقبضة فوق صفحة الماء وهي تتلوى وتثنى
وفق تموجات الماء ، فطفح وجهه بشراً وجعل يدلق لها لسانه ، ولم
يلبث ان اخذ يغرق في الضحك وقد أسر منخريه في هذه الآونة أريج
عبق لا يتنسى . فأدرك لتوه ان عليه ان يتنزه في مسقط رأس كيؤ ، بعد
ان يطرد الطاغية الذي كان واثقاً من عودته مصطحباً تاييه .. ولما غمره
الفرح واستولى عليه السرور ، ، يمم وجهه شطر القصر ، مقدماً نفسه
لعمال المطبخ . وبينما كان لفيف منهم يحف به ، ملحا عليه بأن يسليه
ويروّح عنه مقرباً اليه مالد من الطعام وطاب أطلت تاييه في البهو ،
فلما صافحتها نظرتة ، تهللت اساريه فرحاً لعثوره عليها ثانية ، فسعى

الى التعرف اليها ، كانت متوجهاً نحوها وهو يميس محركاً طلبته فنفذت فيها نظراته كما لو كان زجاجاً . قال لها : أناييز . قالت : لست اعرفك ! قال : انا حارس كيؤ والمنافع عنه ! قالت : لست أعرف كيؤ ! اعتراه ذهول من اجاباتها ، وجمال في خاطره ان شراً مستطيراً قد غلب الصبية .. ولكي يزداد معرفة ، وربما لكي يحبط الخطط ذات التأثير السيء التي لا ترح متحكمة بدورها باقليم جييا ، وطن نفسه على الدخول في رعاية الطاغية .. ونظراً لما أبدى من فطنة ومهارة استمال بهما قلبه ، فقد جعله الطاغية مسليه ، ونجيه وصديقه الحميم ، فكان يبلغه من اقوال الطاغية ما يتحدث به الى أصدقائه والمقربين اليه .. اما الطاغية فكان مفتوناً بإدخال نديم الى بلاطه ، للترويح عنه ، والتفريح عما يقاسيه ، فاستبدل ثياب نديمه البالية بثياب جديدة وزوده بباقة من ريش مخطط الالوان وجدد له جلد طلبته .. ولم يلبث القزم والطاغية ان صارا متلازمين لا يفترقان . وذات مساء دار فيه رقص وتنكر بالأقنعة وبعد ان امضى الطاغية وقتاً طويلاً تحدث فيه وجادل جدالاً مملاً ، ممعنا في رواية قصة الشاين المقنعة قال : " لقد صرفت تاييه عما يجول في خاطرها ، وقطعت شجرة الصنوبر الضخمة ، وأجهزت على كيؤ ، ولم يعد ثمة شيء يخيفني .. غبرت ايام وانطوت فصول .. ولما يرح باستوس جادا في البحث عن القلب استوارني . وذات صباح حين اسفر الفجر دلف زاحفاً على ركبتيه ، وبينما مسر ماض يخفر في الارض خال على غرة انه يلحظ شيئاً بدا حiale معتلياً اكوام عساليج^(١٤) ... انها حبة وردية اللون تماثل قلباً ..

تناول القلب بين راحتيه في حرز وحنان ، وهو يلهث مبهوراً مرتعش الشفتين ، فدسّه - على ضوء وصايا اخيه كيؤ ونصائحه - في قعر قدحه الفخاري الذي ملأه ماء مسحوراً حتى حوافيه ، ثم نضح الماء عليه ، دون ان يفتر هنيهة عن النظر اليه في عطف وحنان ، وأنشأ يناجيه :

أيها القلب الصغير
لقد دنت ساعتك
وستكفي عاتداً إلينا
وأنت أقوى شكيمة ، وأمضى عزيمة !
* * *

لقد آذوك
وآذوك ، وآذوك ، وآذوك !
فهيأ أيها القلب الصغير
لقد حانت ساعتك
بعد أن كبرت
ورحبت !
* * *

لقد آذوك
وآذوك ، وآذوك ، وآذوك !
بيد أن تألقك
وحماستنا
قد أنبتاك
زهرة لغدنا !..

هكذا تنبأ كيؤ ، اذ نبت قلبه ، وتلّون وانتضح فائتلفت في نهاية
المطاف ، كل فلذة منه معاودة خفقانها !..
حمل باستوس القلب تحت وقدة الشمس ، وراح يضمه بين يديه ،
وهو يرقى الطريق الوعر الذي يفضي الى الكهف ، فجاز الدرب مزهواً

بنفسه فخوراً ومالبث ان وضع القلب الخافق فوق صدر أخيه البكر
الهامد .. وحين عاد القلب لتوه مستقراً في مكانه فتح كيؤ عينيه -
واستوى واقفاً في هيئة ومهل وكأنه منبعث من سبات عميق ، وطفق
يهتف ووجهه يندى تهللاً :

هاقد جئت يا باستوس !

ضمّ كل من الاخوان الاخر الى صدره وراحا يعنّان في عناقهما
ومالبثا أن أمسك كل منهما بيد الآخر ، وأخذا يهبطان نحو الصنوبرة
المنطرحة ، وهما يلقيان عليها نظراتهما ثم انطلقا نازلين من سلسلة
الهضاب .

لقد فعل الزمن فعله ، بعد ان استنفد طغيان زيزي صبر شعب
جيبا ، وسرت شائعة تنبئ بخلاص كيؤ وتحرره ، فعمت المنطقة ،
وجعل الأخوان يرويان مغامرتهما في كل كوخ حلاً فيه ، وراحت
أعداد جمّة من الريفيين تنضم اليهما ، حتى اذا مافأوا الى الشاطئ
باعدادهم الوافرة ، اشتدت حاجتهم الى استئجار زوارق كي تقلّهم ..

* * *

التمس القزم في هذه الاونة - بوصفه حارس كيؤ - لقاء (يام)
ساحر الطاغية ، فمنحه الساحر لتوه هذه الحظوة ، فقال له القزم : "
يروى الطاغية زيزي حيثما حل ان يجري الرياح عبده وتابعه ! ويزهو
مباهياً بأنه كان يروضك منها لا عليك ضرباً بسياطه ، كما يعلن أمام
الملا ، أنه هو وحده سيد تقلبات الجو غير منازع .. تملك (يام) الساحر
الغيظ والحنق من هذه الاهانة التي يلصقها به الطاغية فأخذ يصرخ وهو
يتلظى غضباً : " بل أنا السيد الذي لا ينازعني احد وما زيزي الا واحد
من اتباعي الكثر .. الح القزم ملحقاً : " يعتقد زيزي بأنه سيحلّ وشيكاً
محلك في السيادة ، فتشمل سلطته عنان السماء وبطن الارض . كان

انصار كيؤ وباستوس يحفون بهما وهما يتوغلان في وادي (جيسا) ولاياتلي وصولهما يذيع في سرعة فائقة .. ولم يلبث الشعب ان بادر منضمًا الى مسيرتهما ، فمرًا حيال كهف الناسك فوقع بصرهما على امهما واقفة فوق عتبه ، وهي تومئ اليهما ملوحة بيديها المبللتين بالطين ، ماضية في تحيتهما وقد ذكرها مرأى ولديها متلاصقين ، بمظهري زوجها الحبيب الجانبيين ، فجثت نشوى بالسعادة ، وراحت تمعن في تقبيل الارض وتعكف على لثم ترابها ، وقد أرعشت قلبها رؤيتهما عائدين .. وفيما كان كيؤ وباستوس يتأهبان للنضال ، دلفا الى الضيعة بين هتاف الشعب وتهليله ، ومضى الساحر (يام) - وقد عصف به الهياج - يمتزج بزوجة صغيرة مقتربا من القصر .. اما الطاغية زيزي الذي شغلت باله الالتفات التي كانت تبلغ أذنيه ؟ فقد بدا سالكا طريقه صحبة حرسه ، فدل ذلك على ان الساحر (يام) قد انقضض عليه .. لقد طمح (يام) بكل ماله من عنف وشراسة الى سلب الطاغية تاجه ، فهوى التاج عند أقدام الجمهور الذاهل ، الذي راح يتأمل وهو متلع رأسه فاغر فاه ، تقلصات وجه الطاغية ، وتحريكه ساقيه في الهواء وتخطيطه في الزوبعة .. بعد أن أضاعت الزوبعة صيحات الطاغية رفعه (يام) أقوى ماوسعه ، منتهيا الى حمله فوق الغمام ، مواليا التحليق به صعدا كيما يغدو منعدم الجاذبية ، في منأى عن الناس ، مبعدا في أصقاع الأبدية الضائعة . ولم يلبث الشعب ان حمل الأخوين على اكتافه ، متغنيا بخلاصهما من الطاغية ، نشوان بعودتهما الى أحضانه .. اما القزم فقد اقتعد ارض المطبخ متربعا عند قدمي تاييه التي ساورتها حال من الدهول لاتأتلي تلم بها ، وطفق يسحن في هاون مزيجا اوتي السر . فانسق لهذا المسحوق ان قاوم مفعول الخشخاش الشؤم فأبطله ، وسرعان مااستعادت الصبية ذكرياتها ، وفطننت الى حبيبها كيؤ .. " كيؤ الفتى القدوة الذي شق عليه ان يرى العدو يغزو وطنه ، ويغتصب أرضه ، فأخذ على نفسه تحريره منه ، وصرف همته الى ايقاع الهزيمة به

، فدل بذلك على أن حب وطنه متمكن في قلبه ، وأن وفاءه له يغلبه
على أمره ، ولن يضمن عليه بروحه كلما دعاه الوطن إلى بذلها ..!"

الحواشي :

- ١ - القسم الأوسط من الزهرة
- ٢ - ملتقى قمة متوسطة الارتفاع بقمة رئيسة
- ٣ - اللحاء : قشر العود او الشجر
- ٤ - العجرة : نتوء خشبي في سوق بعض الاشجار
- ٥ - المدقة : طرف عضو التأنيث في الزهرة
- ٦ - ذؤابة كل شيء اعلاه
- ٧ - القذال : مايين الأذنين الى مؤخر الرأس
- ٨ - الحشخاش : نبات عشبي يحمل اكوازا بيضا وهو منوم مخدر
- ٩ - الرقية : هي ان يستعان للحصول على امر بقوى تفوق الطبيعة .
- ١٠ - الكوابيس جمع كابوس .. ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يُخنقه
- ١١ - الغر : الشاب لاختيرة له .
- ١٢ - توقّل في الجبل : صعد فيه .
- ١٣ - شعراثيث : كثير .
- ١٤ - جمع عسلوج : غصن دقيق املس ينتهي غالباً ببرعم ثمري .

مناخ الشعر

((يستند الشاعر في حياته الى شجرة ، او بحر ، او غابة ، او غيمة بلون ما ، او لحظة ، اذا ماسح الظرف .. ليس مشدودا الى ضياع غيره .. لحيه ، لدهشته وسعادته معادها في جميع الاماكن التي يراها ابداً ولدى الغرباء الذين لن يعرف .. عندما يرفع الصوت امامه ، ويلج عليه في قبول التشريفات التي تحبس .. واذا ما ذكرت بصدده الكواكب يجيب بأنه من البلاد المجاورة من السماء التي غرقت منذ وهلة .

الشاعر يُتعش ثم يستعجل الخاتمة
في المساء ، برغم غمازات المبتدى العديدة على خديّه، هو عابر مهذب يختصر الوداعات ليكون حاضرا عندما ما يخرج الخبز من التنور^(١) .

((رينيه بشار))

(١) ((الكرمل - العدد ٢٨ - ١٩٨٨ - ترجمة

كاظم جهاد))

لن ندرك من ساعاتنا الصوّائيّة .. ساعاتنا الناطقة وآلاتنا العاملة ، حاجتنا الى كتاب يُنبئنا بالساعات التي تحلّ ... والزمان الذي ينقضي .. والنهار الذي يُسفر ..

أما ان شتتنا صداقة الشعر فإننا نظفر بما نريد

انه شعر الزمان الذي ينقضي

شعر الفصول على امتداد دروب المدن

شعر الفضاءات المرحبة

شعر الساعات والأيام

شعر الحياة ..

ذلك لأن الشعر يهب لنا اوفر مما تهبه تفسيرات صانعي الساعات
حيث يتوجّه نحونا ببراعة الفاظه ، وتنسيق أجهزته

وحيث ينفرد برّناته ، ويستأثر بصوره ، فيقودنا في رحاب
ميادين الكون . اما مايتصل بلفظه العربي ، فان كلمة (مناخ) المتأتية من
اليونانية القديمة . هي اليوم وعد الشعر ..

بيد ان المصريين القدماء قد عرفوا (المناخ) كما عرفه اقدم
الصيّن والهنود الاوفر وقارا.

واما (المناخ) في اوربا - إبان القرون الوسطى - فقد استخدم
قليما في تحديد ايام السنة ، وساعات شروق الشمس وافولها ، وتعيين
الفترات التي تنقضي بين قمرين جديدين متتابعين ، وتمييز الاعياد الدينية
الكبرى ، فأظهروه في الكنائس ، وتجاذبوه في دور العبادة ، ومالبثوا أن
اخترعوا المطبعة فشاع (المناخ) على هيئة كتب ادّعت التنبؤ بالمستقبل .

ابا مناخ الشعر فلا ينشد ذلك كله ، ولا يصرف عنايته الى النظر
فيه .. حسبه انه يكتفي بأن يوحد قصائد جديدة ، ويتفرغ لنظمها ،
وينشط له يوما تلو يوم وشهرا تلو شهر ، شأن السنة الجديدة التي
تسلك سبيل السنين ، وتتبع قصائد جديدة ، لا ينهض بها غير الشاعر
الحق ، ولا يضطلع بها سواه ، شأن كل نهار يسفر . قصائد تخضع
الزمان للوزن .. وتلجئه الى الايقاع .

هذا الزمان الذي يلوذ بالفرار مع الحياة التي تنقضي طوال
الأشهر.

وإن تحالف الفصول والشعر يتوضح في كليهما .. لأننا بالشعر
ندرك حياة العالم العظيمة .. ولو أننا تنبها الى نبض الطبيعة الفائق الذي
يخفق في أصغر غرسة، كما يخفق في أنأى الجحرات ، لألفينا ان نبض
الشعر قادر بدوره على الانصات الى الخفقان في كل قصيدة شأن قلبنا
الذي يخفق في صدورنا .

((جاك شاربنزو))

مناخ الشعر

=====

ينتزع مناخ الشعر
قصائده للرياح كافة
وتغضي هذه الأوراق التي تمسك بها الريح جارة حياة متشرّد
الى نهار ... نهار الشعر ..
ذلك هو زمان الخيال المبدع
وانا ملك المغيزيا
بعد أن أبطلت العضلات كافة
في نهار ... نهار الخيال المبدع .
الان الحياة الحقّة، هي الحياة المصطفاة
التي نصيب ما يذرونه منها
وان الشتاء ناجم من ربيع منتشٍ
وان السماء هي الاجمل حين نهواها
في نهار ... نهار الحياة المصطفاة .
إن ورقة تعلق ورقة الشعر

تنجم من ربيع يخضر الرمز
وان الشقاء بدعة
وان الفرح يقفو قصيدة تلو قصيدة
وذاك هو مناخ الشعر ..

((جاك شاربنترو))

*

الشعراء

=====

شعراء شعر ونثر
شعراء مديح
شعراء سود .. شعارير
شعراء بلاط .. شعراء قصور
شعراء شيء تافه لا قيمة له ولا وزن
شعراء نبلاء وغنائيون
شعراء جامعة
وهم بعوالم المدن
غزيرو الشعر .. شعراء مظلومون
مزهوون كقملة
مائعون كبوم لا قنازع لها
شعراء يوثقونهم بعجل
شعراء صُلع الدماغ

شعراء احياء
شعراء موتى
ينفخون في صور في اقصى القباب
شعراء مجامع علمية
شعراء قصيدة غنائية لم تتم
شعراء مجلدات .. علماء
شعراء فقاعات هواء
شعراء حاملون
معلمو صغار
مجازون بقاعدة آداب
شعراء عظماء هميون
شعراء قديسون ، يظهرون السماء ويكشفون عنها
شعراء عذبون في المحاضرات
شعراء دواوين رقيقة
شعراء ظل وتوايت
شعراء ضائعون في اقليم

شعراء ملوك ... شعراء امراء
شعراء ذوو مداد ناضب
شعراء اصدقاء نقاد
شعراء يرصدون التجربة
شعراء تافهون ، حقيرون مدهنون
شعراء خالدون مُسَفُون
شعراء جلد نادرين ، جلد عقلاء ..
حسب أبسط كلمة فوق طرس
أنها تنصرهم الى الأبد

شعراء يومضون في ايار
شعراء بلداء
شاعرات
يتناولن الأعوام على عجل
شعراء من هنا وهناك
حشد من المقرمين (١)
اجوزهم او فر لما استيهم ..
الا ان العالم كله
شاعر !

((جاك شاربنزو))

القصة

=====

القصيدة
أشبه بقرص حلو
من نعنec
يضعونه على اللسان
سبع مرات
فيدور
ويعيد دورانه
مجلوآ
ملسا

(١) الذين ينظمون الشعر الرديء

منساباً
في الماء
ذهنياً
فتبدلو حقيقته
على غرة
في ألق
النضارة!..

((جوثيل سادلر))

تري ، أين يمضي الشعر؟

=====

تري ، أين يمضي الشعر؟
لقد أقعدته على مقربة دائية مني
فكان حلزوناً أزرق زهادياً
كان زهرة
كان جوزة!..

كان تراب سوسن
كان كلمة ذات اجنحة خطرة
كان خنجراً
كان وردة
كان حصاة من صوان!..

كان آهة

كان سحابة تعلو كتفي عابر

كان طفل ضياء

وضياء يعلو طفلاً..!

*

كان ظلاً يغفو بين ذراعي

هامساً في اقصى الممر .

كان قطرة مساء

كان دمعة فجر ..!

*

تُرى اين يعضي الشعر؟

لقد أبصرته على مقربة دائية من هنا

ولم يلبث أن مضى الى هناك

مضى الى امرأة معوزة

تندفأ على كُتب من النار

مرهفة سمعها الى قلبها الخافق ..!

*

إنه هنا.. إنه هناك

إن هذا الشعر يستثيرني

إنه من نار

من تلج

وإني لألوب باحثاً عنه فلا أعثر عليه

وحين إخاله ضائعاً

أبصره يتألق

يؤوب
من هنا.. من هناك
من هنا ... من هنا...
تُرى ، اين يمضي الشعر ؟
تُرى، اين يمضي ؟
لست ادري ..!

((بيير غامارا))

*

تُرى مَنْ حطّم ..

=====

تُرى مَنْ حطّم
مَرَّ الأيام ؟ ..
مَنْ أضاع
مفتاح الأحلام
مَنْ سرق
مفتاح الحقول ؟
إنه الزمن
إنها الريح
إنه العقق
إنها الحياة
إنه الشعر ..!

((فلورانس فوكومبريه))

*

كلمات جميلة

=====

أيها الشاعر !

لكي تمسك بالريح ، أبسط جناح القصيدة
ولكي تخطو في غابة ، إرفع مقاطعك مستقيمة
ولكي تواجه البحر ، إزه مفاخرأ بمقاطعك الشعرية!

إمّا بلغت العلو في اوانك

وإمّا لمست قلب الغابة

وإمّا ادركت ارتفاع البحر وامتلاءه !..

أيها الشاعر !

أجل فكرك في الفعل النشط الذي قادك الى هناك
وأعمل فكرك في انهم امسكوا بالريح إمساكهم بقصر
وأنهم ولجوا غابة ولوجهم معبد
فإن أخذك البحر ، فإنه شبيه بفعل الحب !..

((جان موجان))

للشاعر آذان

ألا إن للشاعر آذاناً

آذاناً كبيرة

إذ ينبغي أن يرصد صخب الأرض كله

يرصد اغاريد الطير والناس
يرصد صياح الحشرات الحاد
يرصد حياتها التي تتوارى في همسات الأجنحة
يرصد دموع الحلزونات التي تكمن في قواقعها
يرصد الورقة الأولى التي تولّى عنها الخريف
الورقة التي تسقط فوق الصيف الأخضر بدوره
فوق الأرض الخضراء ..
ألا إن للشاعر عيني
عيني دعجاوين مفعمتين بالغمام
تأملان فصول الناس ولانهاياتها المديدة
يرارده حلم بأن ليس ثمة عُمر ، بل إن ثمة أطفالاً كثيراً
إن للشاعر عيني مداعبتين
أشبه بيدين
وانامل طويلة هادئة
كيما تهدئ غضب الزهرا
ألا إن للشاعر قلباً واسعاً
كيما يهوى شتيت الأشياء
وتأري اليه كافة الكائنات
ان له قلباً مفتوحاً لكل الأزمان
أما ذلك فلك
ولن يحقق إلا لأجلك !..

((ماري - تيريز لامبرت))

*

الكلمات

=====

الكلمات

الكلمات

إنها تحاكي عوسجات
إمّا دبّت خطاي حيرى !..
فيا أيها الشاعر النقيّ !
يا أيها البائس البريء !..
إنك لتستزفها
بيد أنك تغوص نحو هذا السراب البراق
نحو هذا القصر الذي يحدس به قلبك !..
أما المضجع الذي تصطفيه القافية
فذرارة التخيّل الصغيرة
ونهار ينقضي
والله يعلم كيف اصطفته !..
فيا أيها الشاعر النقيّ
يا أيها الأمير الساحر
ينبغي لنا أن نوقظ الشعر من سباته
الشعر الذي يحاكي امرأة شرسة
في غابة غافية !..

((جان - لوك مورو))

*

الكلمات .. الليل

=====

تفتّح الكلمات والعيون في ليل الروح
تسهر الكلمات علينا ، وتديم العيون النظر فينا
تحرس الكلمات نارها ، وتُعيل الكلمات فكرها من اجلنا !
تحرس الكلمات معانيها
تحفر الكلمات السواد
تحفره بعيونها الرقافة
بعيونها الجذابة
التي تنقد في الليل بعيونها البصرة!
تطرد الكلمات الليل
وتحرس الكلمات الروح ..!

((جان موجان))

*

لا وقت لديّ

=====

لا وقت لديّ
ورغم ذلك
ففي اعماق
كل كلمة

ورقة شجرة
حوى لائبة
يمزج الصيف فيها
كلمات آخر
وبعض ظل أعى كنهة ..

((لويز دوبوست))



بياناته شعرية

الشاعر البلجيكي جورج لانز

جورج لانز:

ثمّة وجه مشرق ألف الغرب النظرَ اليه والاعجاب به ، بعد أن شاقه سحر غنائه ، وراقته عذوبة النغم الذي يصدح به ، إذ لامسَ الأفتدة التي آدها عصب الآلة ، وحركَ النفوس التي ملّت سماع ضجيجها، فبعث شعجاها على مصير الانسان ، وتوقها الملحّ الى نشدان الطمأنينة والهدوء ، كيما يعيد الى الغرب ما افتقدته من قيم ، ويؤكد رسالته في المحبة والانشاء ..

ولايساورني شك في ان الشاعر (جورج لانز) هو الوجه المشرق الذي تألق ، لافي سماء الأدب البلجيكيّ فحسب ، بل في سماء العالم الغربيّ كذلك .. بما عرف عنه من اخلاص لموهبته ، وتفان في نشر دعوته ، ونصب في عطائه الشعري ..!

قيل إنه ولدَ في مدينة (لييج) في شهر آذار من عام ١٩٠٠ وان اسمه اقترن على نحو وثيق بظهور الشعر الحديث في بلجيكا ، وانه في اعتناقه (المدرسة المستقبلية) ودعوته لها يشبه قرينه الشاعر (موكل) في اعتناقه الرمزية والدعوة لها ..!

و(المستقبلية) ((حركة ادبية اوروبية ، اعلنت انفصالها كاملاً عن الماضي ودعت الى صور جديدة للموضوعات والاساليب ، لتواكب روح العصر الجديد الناهض ، الذي عرف الآلة والطائرات والمعامل الاوتوماتيكية ، والسرعة الهائلة!))

وقد تبنى معتقوي هذه المدرسة تعبيرهم من احدى قصص الشاعر
(فيليبو توماسو مارينتي) وتغذت هذه الحركة وانتعشت بفلسفة

(نيتشه) و (سوريل) و (برغسون) بيد أنها نشطت وقويت
على يد الشاعر الايطالي (مارينتي) الذي ولد في الاسكندرية عام
١٨٧٦ وعاش فيها ، وكان ينظم في الفرنسية .. واصل عام ١٩٠٥
مجلة (شعر) التي كانت لسان حال (الشعراء الكبار المتحمسين) الذين
أصبحوا قادة المستقبلية فيما بعد! ..

لقد رمت المستقبلية إلى أن يتجه الأدب إلى المستقبل ويقطع كل
صلة له بالماضي ، وأن يبحث عن وسيلة جديدة للتعبير تناسب تغير
الحياة ، بفضل الأكتشافات والاختراعات العلمية .. كما هاجمت
اصول الحضارة الاوربية المعاصرة ، ولم تتقيد كثيرا بالقواعد والمعارف
الموروثة ، ولكنها - على الرغم من هذا - وجدت لها انصارا كثيرين
من فناني اوربا وادبائها ، وتأثر بها كثير من الحركات الفنية فاقتفت
اصولها ، كالحركة التكعيبية في الرسم ، والمدرسة التعبيرية والمدرسة
السريالية ، وانتشرت المستقبلية في روسيا قبل الثورة فانقسمت الى
مدرستين سميت الاولى (المستقبلية الذاتية) التي تزعمها
(ايغور سيفيريانين) الذي سيطر على (سان بطرسبورغ) بنحوه المشوّع ،
وغلو عبارته وتحذلقه .. وسميت المدرسة الثانية (التكعيبية - المستقبلية)
وكان من انصارها الشاعر (فلاديمير ماياكوفسكي) الذي نشر عام
١٩١٢ مع بعض اصحابه بيانا اسمه (صفقة على وجه ذوق الجمهور)
.. وقد تبنى هذا البيان ماسبق ان نشره (مارينتي) عام ١٩٠٩ ..

من هنا ندرك أن من واجبنا اعادة النظر في كل ما يتصل
بتصورات الشاعر (جورج لانز) الذهنية ، التي تخيلها عن السعادة
والبؤس والحب والمجد والجمال .. وان كنا نلاحظ أن ثمة عالما يموت
وعالما يولد لدى هذا الشاعر ، ومع هذين العالمين تولد (قصيدة) تبدو
بواكيرها وكأنها نبوءة من النبوءات التي تراود ذهنه! ..

قصارى القول : لقد كان (جورج لانز) وما برح حبیباً الى نفوس متذوقي الشعر ، اثراً لديهم ، لأنه الشاعر الذي استطاع بعذوبة شعره وسلاسته ، أن يجلب الى قلوب قرائه لا السرور والمتعة فحسب ، بل جلب الوعي بمصيرهم المهتد ، ودعا الى امتلاك زمام الأمر قبل أن يفلت من ايديهم فيعم الشر ، ويسود الظلام ولات ساعة مندم !..

وكما عرفنا (جورج لانز) شاعراً ثائراً ، عرفناه باحثاً واعياً يصور لنا بعمق وشمولية، الحال التي تحياها اوربا اليوم كما تبدت له ، وكأننا به يستلهم الصورة التي رسمها وافصح عنها ((م . ل . روزنتال)) في كتابه ((الشعر والحياة السياسية)) منبثاً بوطأة البيئة المدنية المترعزة ، وتأثيرها السلبي الذي ترك في (الاوربيين) كمعيار اخلاقي - آثاراً سيئة في نظامهم الاجتماعي حيث يقول :

((عندما تفكر مثلاً فيما كانت عليه الذمنية الاغريقية من جمال وسحر ، وماهي عليه اوروبا الحديثة الآن ، فلا الشعراء ، ولاغيرهم من الناس يستطيعون في ايماننا هذه التخلص من الاحساس بالتفاهة التي تعم الحياة ، ولا تجنب الاحساس بالاشمئزاز من اخفاقنا في التخلص من الانحطاط الذي احاق بكثير من الوجود الانساني .. ويبدو ان شعرنا في هذا العصر ينجذب نحو مظهر متعب مهزوز من قدرتنا على معالجة ابسط دوافعنا الباطنية ، ناهيك عن مواجهة اكثر مشاكل العالم الحاحاً^(١) !..

او كأنه استشعر عن بعد في الزمان والمكان ما عناه شاعرنا (المعري) بقوله :

قد فُقدَ الصِدْقُ وماتَ الهدى

واستحسن الغدرُ وقلَّ الوفاءُ

(١) انظر : الشعر والحياة السياسية ص ١٦٢ - تأليف م.ل. روزنتال - ترجمة ابراهيم يحيى الشهابي - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٢ .

واستشعر العاقلُ في سقمه
ان الردى مما عناه الشفاءُ

*

وعلى هذا النحو فإن هذه (البيانات) في مجملها - صورة صادقة
لما ألع اليه (روزنتال) وشاعرنا (المعري) أبدى لنا فيها (جورج لانز)
رأيه في المدنية الغربية التي ينبغي للشعراء ان يعوها وعيا صادقا .. كما
ينبغي لهذه المدنية ان تحتضن شعر المستقبل وتتجاوب معه ، وان تجنب
الشعراء الضياع في متاهاتها ، وتتيح لهم ان يجدوا الاطمئنان الذي
يحدوهم للعيش فيها وتمثيلها والتعبير عنها ، اسوة بمن سبقهم من شعراء
مثلوا عصورهم اصدق تمثيل وعبروا عنها ابرع تعبير ..

_____*

بيان

في حاضر معظم خطر

ان الجثث الجملة في الحروب كافة ، التي تشبه رمماً نجهل
اصحابها، لاتفتأ - في عنف اليوم - تصفع وجوهنا فتشوهها ثانية!..
ذلكم هو الفعل المؤلم الغبي ، الشيطاني ، الذي لاعذر له ، بعد
ان ختمت - على نحو يثير الشفقة - الرسالة التاريخية ، التي قدمت
العديد من الشعراء في شتى ضروب التخيلات الا في الخيانة .. فحل
الهرم قبل اوانه وولى - على الرغم من ذلك - نظام لم تخلف نوابه اي
عون .

وانهم ليتساءلون :
((انتم مهياوون لايقاع جديد)) .
ويجب لقيف :

((لكم يصيبنا جهد في التفكير فيه وسنمسي اليوم جد آمين)) .
من تراه يؤتى الجرأة على الدنو منهم ومن أساهم ، إما حفت بهم
الروح فبدت متوارية في كل منطق ، واحتاجت عبقريتها فأدركت
حاجة مرعبة من الهدم ، وأمست النكبات مألوفة لدينا ، وشرعنا
بمؤالفة الاطلال .

كيف دار الامر فان الجمال والقوة النقية والمجهول هي - بين
ظهرانينا - وانها تدفق في القصائد ، وتنصب في العديد من الآثار ،
وتندفع في العديد من حيوات ، هي بدورها قصائد ، فتواري آلات ثمينة
، بله اشياء متواضعة هي بدورها شعر ..

لذا ينبغي لنا في اللحظة التي يتحدث العالم فيها كما لم يتحدث قط ، ان نحتفظ باحلام قديمة لم تهجر المدن ، لأنها هي وحدها المسؤولة وان هذه الاشباح التي تتجول كلها ، لن تقوى الا على جرنا الى مهام من الاسلوب جهير الصوت ..

على هذا النحو سيبدو الشعر اشبه بتمرد .. بعدوان .. بزرارية .. فأنى له أن يمسي خلاف ذلك ؟ ..

إنه يثبت ، بينا الكل ينفي !

انه يهزج بالغناء ، بينا الكل يعوي ^(٢) hvrler ويعزّيه الهذيان !

انه يكشف عن اسرار جوهرية ، ليست مطابقة ولا جوهرية ..!

الا إن قوى شعرية منذرة لتغلغل في شتى الأرجاء .

تغلغل في الجماهير وانفعالاتها الغامضة

وان في شغاف قلب الانسان تكمن مدخرات من عذوبة اخوية ، بيد ان ثمة - الى جانب النوايب المباغثة ، الممكنة - مهمة عجلسى مؤداها:

ان على الفن أكثر من اي وقت مضى ان يجهل الأناة والرتابة .. وان يقاوم كل رد فعل .. ان نبذع معناه رد فعلنا الجيد .

اما الصور والافكار ، والايقاعات الجديدة فتعين التمرد الدؤوب الذي لا يبرح الشعر يقوده .

وخلال هذا العون لا يبدو وجه العالم الا فكرة تتبدل وتكتمل .

اليكم كيف انثالن نؤتى الجرأة على القسم بأن الشعر لن يتشبث البتة بالآلات ..

(٢) يشير الكاتب الى المثل القائل hvrlavecleslovps عوى مع الذئاب
تقال لمن يجاري بينته في تصرفها .

وانه اشد منها صلابة .. وانه يتمسك بفواجع جد بغیضة ..

لن يساورنا شك في ان الشعر موجود في كل مكان وجد فيه
نسان - هذا الدوامه من عظمه وغباء - ..

وانه يجسد - بكل ماوتي من قوة - حضوره الوشيك الزوال ..

_____ * _____

بيان

في الشعر الذي حولنا

لسنا نعتي الانسان فحسب في كشفه عن صلات اكثر او اقل
تسويغاً بين الماضي والمستقبل ، تتيح له بين اشياء آخر أن يظل غاض
الطرف وسط حياته الحقيقية الوحيدة ..

ان الانسان يستشعر بين الفينة والفينة حتمية تحرير نفسه من
عبء العصور فينبذ مشغوفاً والغبطة ملء أعطافه عالماً مضنى حتى
الذيان مذلاً مهاناً ، مغتما غماً شديداً ، كنا فيه ثمة ، فاستبان لنا أن
على الجسور أن تسمي مقطوعة ، وعليه هو ان يطرد الاشباح ليعثر على
البرودة الاولى فيكيفها حسب مشيئته ... قصارى القول : عليه ان
لا يواصل الاعمال الرائعة التي صنع فيها - طوعاً او كرهاً - مؤثرات
من رد فعل ، ومشاهد في الحياة .

تلك هي المعركة الاولى المحررة الاسهل ... اما المعركة الثانية -
الابطأ والأخصب فتلك التي نتحرر فيها من انفسنا ... أنفسنا النابعة
من نصر خاص .. لأن الفن شاهد أكثر منه تقويم .

أترأه شيئاً آخر من معادلة في الاثبات ، يغدو فيها عضو من
الاعضاء العالم المرئي ... واذا اتنا في خاتمة المطاف نجوز عجلين ، فان
هذا العالم الذي مافتئنا نكتشفه كل يوم .. في شهواته ، وحجاراته ،
وفضاءاته ، سيضحي الشاهد الوحيد للمجهول الذي نسبح فيه .. وهو
ان لم اكن مخطئاً - الذي يكون جوهر الشعر نفسه ..

وعلى هذا النحو فإن ما أراه واستشعره ، لن يجد نفسه في اي
ماض واي مستقبل .. انه يسود في اللحظة نفسها .. وان مأساته - ان
كانت له مأساة - بادية حيالي ...

الا ان الفنان - بما اوتي من شذوذ - ليهرب في ماض اكثر ميئاً
من المستقبل الذي يغريه بدوره .

انه في سبيل عالم لاشعوري iconscient يأبى مخطئاً الدلالات
الاولى الوحيدة الصلبة ... الدلالات الاولى الكؤود في الشعر ! ..

الا ان لكل زمن أرضي دوره ، وليس في ميسور الحقيقة القديمة
ان تمسي لي الا بتفاوت عصور .. عصور اشبه بالجنون .. وان حقيقتنا
هي هذا الشعر الذي ينبغي لكل جيل التحرر منه .. إنه اليوم حولنا ،
وسيمسي حول اولئك الذين يجيئون بعدنا وان البدهة بدورها جد
عظيمة حين نحياها ... سنصنع عصراً تضيق علينا جميعاً الروح التي تنير
عواطفنا ..

الا إن عبقرية الإنسان لتضع نهاية عصر ، طارحة نظاماً جديداً
اصيلاً جازماً .. وان العالم الحديث ليجرقنا بتهديداته المذهلة ، وموائقه
، واحساسه بالهدم .. وان الابداع ليجرقنا بزهو ، وهمجته وإيمانه
وصمته ... وان السماوات خواء ... بيد ان ايدينا ملأى بقوة مواراة ..
وان العالم ليس العالم .. واننا يا ذعاننا للسرعة لن نعمل فكرنا في دوام
الاثر الفني ! ..

فليكن هذا الافر اندفاعاً ..

ليكن تعبيراً عن لحظة مغيرة فوراً ..

ليكن نظرة .. رؤيا عابرة ..

عندئذ سيغدو كل شيء حسناً ، ويمسي كل شيء على وئام مع
قدرنا العابر ..

الا إن الشعر ليتبرأ من لامعنى العالم وقيمه الخفية

انه جد متماسك فوق الارض .. جد متعاضد في الاشياء
الصلبة ..

انه مسل في الدفع والبرد .

وان الانسان ليعلن الثورة على النظام المرثي ..

وان عبقريته - دون ريب - هي اليوم الى جانب آلات اوفرهناء
وحبورا منها في الاحلام الخرافية التي توشك ان تتوقف عن اشارة
جنونها..

_____ * _____

بيان في الفنون التشكيلية

او في الشعر الحتمي

لقد كانت المستقبلية ^(١) والتكعيبية ^(٢) والتعبيرية ^(٣) والبنائية ^(٤) والتجريدية ^(٥) ابتكار منتصف هذا القرن ، وما فتئت دائبين على الحياة فيها .. ثمة انسان جديد حيال حضارات كاملة ، تستكشف فيه الطاقات نفسها . واذ يسعى الى ان يولد فإن حمياه - وهي جد عظيمة - تنشد الهدم الذي يتعذر اصلاحه ، وحسب الهدم انه تطهير عاجل . ولكم من متخيلين عن التقنية يحومون عميا فوق مدننا الالهية ، لايتون متشبثين بالأرض بأواصر نعرفها حق المعرفة . وعلى اولئك الذين يتشبثون بالبقاء خارج عصرهم ، وان لم تكن لهم العيون والروح الخائية بما لا يقاس من الجهل ، وبما لا يقدر من فقدان الشعور ، ان يرتضوا كل الرضا بأن مامن شيء في الفن لا تحدده عبقرية الانسان .. وان هذه العبقرية تتجلى بخاصة في الآلات المدهشة باسم الحديد ، والماء ، والقوة.

(١) نظرية فنية انشأها الشاعر الايطالي (مارينيتي) حوالي عام ١٩٠٩ للتعبير عما في الحياة من طاقة دينامية ترهص بالمستقبل .

(٢) مذهب في الرسم والنحت تعمل فيه الاشياء بمعكبات واشكال هندسية اخرى .

(٣) مذهب يرمي الى تصوير المشاعر التي تثيرها الاشياء والاحداث في نفس الفنان .

(٤) نظرية جمالية ظهرت عام ١٩٢٠ لتحل محل النحت التقليدي بنحت مفرغ يكتنفه تشابك في الخطوط والسطوح .

(٥) اصطلاح يدل على ميل الى اعتبار المجردات موجودات واقعية .

وليس هذا مادرج عليه الزنوج او الهنود الذين ابتدعوا لنا فن
عالمنا المذهل .

الا ان اقل ما في مكتنتنا قوله : ان على العبقرية ان تبلغ توازنات
جد محيرة .. وعلى الروح ان تلمسها فتضطر الى ان تتكشف عن منطق
جديد ..

على هذا النحو يتعمق الحلم فيمسي قادراً على الحديث عن
هندسة الهوة ، كما يتحدث عن الوجه او الشجرة .. فلقد نحا الفنان
كما نحا الانسان ، وبديهي أن ثمة (اناساً آليين) بيد أن علينا ان نكون
متواضعين فنسلك في الطبيعة مسلك (الاناس الآليين) الذين
اصطفينا هم .

آه ! اننا لنعلم حق العلم أن الفنون التشكيلية تحيا أبعد من
احتمالاتها ولعلنا لانعثر في ثوراتنا إلا على رعشات وايقاع ، وفضاء ..
ولكن حذار ..

فحين يقولون ان اللون لن يكون البتة مقيداً بشيء محسوس او
بموضوع فمن الجائز انهم يتعدون عن العالم واعاجيبه ، لاهين به فوق
الكلمات ، ومادروا ان تحرير اللون من الحجم ، والتخطيط بصراحة
تامة ماهما إلا هروب من الحياة وابتعاد عنها .. وليس الفنان - هذا
الانسان الأسمى - بحاجة الى أن يكون ثمة لهذا النحو من اجل اثر
رجعي (٦) .

وحين يقولون : ((إن العالم مضمّن اذا ماغلا الرسام في التعبير عن
الهامه الذي يسمو الى السماء)) . فمن الممكن أنهم يمنحوننا حقيقة
خالدة في نموذج تشوبه رومانسية .

اما اليوم فثمة فئة من فنانيين متسكعين يوشكون أن ينتحروا
فرحين وقد تقاعدوا حيال الشكل ، لا يهتمون شيئاً سوى صورهم
الأشدّ خفاءً والأوفر جنينياً ، والاكثر احتجاباً ..!

(٦) reaction naire من Reaction وهو في علم النفس انعكاس لا ارادي .

ألا اننا حيال جزء سلمي من ظاهرة معاصرة ، بيد ان هذا النهج
الذي لا يفهم ، هو حجة ثمينة رغم كل شيء ..

واذا أنهم يعضون مرتبطين بمجتمع يفنى ، لا يشاركونهم فيه أحد ،
فإن العالم لا يفتأ ثمة - رغم ذلك - أغرب مما كان ، وقد ارتاده سواهم
بشروات متباينة ، ربما يكمن فيه انتصار جيلنا !..

الا إن ما يجيء لن يهاب اشكالا ، ولن يخشى الوانا ، او يهرب
تفرّداً او محسوسا ، او مجرد أبل ليس ثمة إلا وظيفة الشعر نفسها التي
ستحتويه !

الا ان فناً بلا شعر ، وليكن تصويراً ، او موسيقا ، او رواية هو فن
بارد لا حياة فيه ، ولا غد له ..

الا اننا لنعلنها عودة الى روح واحدة في اللون .

عودة الى روح واحدة في الشكل

في الفنون التشكيلية

وفي الشعر الحتمي Poèsic Indispensable

— * —

بيان

في تحقيق^(٧) الممكن

ان حضارتنا التي لاتحدها اية حدود ثابتة ، بل ان ثمة تخلفا يصحبها يشبه ظل حضارة باقية ، فلسفية ، صناعية ، شعرية .. تهب آلات وصروحاً وكتباً وموسيقاً وهي في شتى الانحاء .

وليس من شك في ان الظلمات المقاتلة التي ترين علينا لأول مرة ليست إلا عابرة وان العالم دائب على الانتاج .. أعني أنه لا يأتلي يتجاوز نفسه في كل مكان ، مدفوعاً بالضغوط الأسوأ ، وأن على أولئك الذين يعون الماضي حق الوعي أن يستبينوا أن الأمر ليس خارقاً .. شأنه وسط خمول أكثر مضايقة .. وأن فنانين قد حدسوا بأن فناً يأخذ بالتطور ينبئ في المجتمع بتيار فكري مماثل .. وان الانسان لم يتكيف بعد وسط المعجزات التي تحف به فتغص عليه عيشه .. انه فن جديد لا شاغل له إلا الزرد^(٨) ، وقد أعطيت الإشارة ، وليس هذا من اجل لا شيء ، لأن الآلات تهدم عالماً لم يكن قائماً لها .. ففي مدتنا الالهية ، وفي جماهيرنا المعنة في الجهالة الموغلة في سرعة التصديق ، المغرقة في القصور الذاتي ، تكمن اساليب شعرية غنائية Iyrisms فعالة .

الا ان عالماً جديداً يشاد ، نمسك فيه بالسحر الاعمال الاولى

(٧) synthese في الفلسفة : نتيجة الجمع بين الطريخة والتقيضة في الجدل الهيجلي
(٨) في الاصل BALBUTER ومعناها جليج اي تردد في الكلام .. وجليج في صدره شيء تردد ومنها اللجلاج من كان ثقيل اللسان يتردد في كلامه .

الباهرة فيهيحنا بطء الظاهرة وحده .. الا اننا نحن الذين نلائم بين
القيمة والزمن وان التناج الأدبي سيتدفق في اللحظة الحاسمة .. وان
الصروح تشاد ، وان القصائد تنشد .

أترى يحتلّ بحثنا الأول مكانه حولنا ؟

ليكن .. من تراه سيقومّه تقويمًا لانفع فيه ؟

واذ أن كل قوانا ، وكافة اصالاتنا عامة شاملة ، ينبغي لنا ان
نسعى حسب المقتضى ، وان نتعاون ، وأن نتقذ ماتفاقم اليوم ،
فالعسكريون والتجار يستमितون .

ماهمنّا !..

إن تحقّقاً عقلايياً ممكن رغم كل شيء ..

حتى لو أفسر على أن يظل خفياً .

حتى لو لم يكن إلا فكرة صابرة في اعماقنا ..

حتى لو لم نكن إلا افراد أيجيلون فكرهم في اوروبا ، ثم في العالم ، مادام
الطليعيون منا يقومون اليوم بدوريات وهم جلدناين عنا ..

— * —

بيان

في الغموض المبدع ١٩٥١

لقد وقعنا في الشرك بين حرب ضروس واحتمال^(٩) تنازع جديد، يعسر علينا تصوّر ما يعتوره من هول .

كانت لدينا ومن حولنا ، وفي مدننا ، آلات اشد من الزهر استعصاءً على التعليل ، واسرار جوهريّة جمّة ، توشك أن تكون معروفة .. وقد اكتنفنا عالم من الجن وسحر الكون ، كما لم يكتنفانا من قبل ، ومضت قوى صناعية متقدمة ، فبدت - مع حتميّة التاريخ - وكأنّها لا تردّ الى اصولها .. وأنكرت الإله فئة من الناس معتقدة أنّه كان ، بيد أنّه يملأ دون أن تدري ايديها وعيونها ، وانه يجد نفسه الى جانب الحياة أكثر مما يجدها الى جانب الموت ، واذا به - بما في هذا العالم من ولادة ابدية - راح يعلو من موسيقات صغيرة ، وينسرب من اغان صغيرة لطيفة ، وينطلق من اصوات صغيرة شاكية ، قالوا لنا عنها :

((إنها من الشعر)) .. او ليس للشعراء الفكّ الذي يفتح اليوم على الأفق ؟

أو لم يستشعروا دقائق قلب المدن الغريب
أو لم يسجلوا - عليهم أن يصنعوها ماداموا اذكياء - سرعة
الاحداث الاسطورية ؟

(٩) في الاصل : perspective ومنها perspectivisme وهي النظرية التي تتلخص في أن كل معرفة نسبية للموضوع العارف وحاجاته .

ألا انهم لينظمون موسيقاهم الصغيرة ، ويدعون اغانيهم الصغيرة اللطيفة ، ويلهجون بأصواتهم الصغيرة الفطنة .. فلو لم يكن كل شيء إلا احتمالا .. ولو لم يكن كل شيء إلا رمزا أكانت لدينا ومن حولنا ظاهرات جديدة ، ورموز جديدة ؟

لذا فقد آن لها أن تتجسد في القصائد ، وتتخذ في لغز القصائد ، لأن فيها تحيا الحقيقة .

كما آن لنا نحن الا نثلبث في تحرير أعظم معركة ، وأعظم عيد لامرئي ، يلهوان - ان حسن لديكم - على مقربة دانية منا ، لأن الاشياء الاكثر تواضعا ، ترقى بالصدمة نفسها الى متصاف الرقباء الاول ، وكأن الشعر لم يوجد الا لأن الاشياء التي الفناها خارقة لم نألفها .. وان مامن شيء ثابت ، ولا شيء انساني ، ولا شيء أرضي يقوى على ان يغدو ممجدا بالاحساس الشعري ، وفي أسرار الصور وخفاياها !

علي هذا النحو تستحوذ القصيدة على سلطان الليل ، لأن الليل وحده يمكننا من رؤيتها حتى اعمق ما في الفضاء .

اليكم - أيها الشعراء - أزجي الشكر على ظلماتكم الفنية

فالاشكال الجديدة تولد في الغموض المبدع . والاعمال الرائعة المجهولة تتكشف وانتم ثمة الاكثر حقيقة .

على هذا النحو ؟ ومن موسيقا صغيرة ؟

واغنيات صغيرة لطيفة ؟

واصوات فطنة شاكية ؟ ..

أتراكم - أيها الشعراء - ستخلون عن هذا العصر ؟

آه ! بلى .. اني اسمعكم .

لقد كان لزاما أن تحلموا بهذا الذي لم يكن .. وان لا تتهربوا من الواقع ..

كيف دار الامر ، فليحالفكم التوفيق فيما تنهدون له وتسعون اليه .

هاكم - ايها الأصدقاء - : إن شيئا ما يمر بيني وبينكم .. أتراكم تستافون رائحته المعدنية التي تفوح من عرق عماليّ وعبقريّة؟ .

الا ان شيئا ما يولد فوق الارض فيتشبث بالسمااء .. إنه نحن الذين اشقينا على الشيخوخة وهاهما - الحياة والموت - يتضاعفان - فياله من مشهد .. ويا لها من مأساة ينشدان موسيقا اشدّ خطورة .. ويلتمسان اغاريد او فرنبوعة .. ويرجوان اصواتا اكثر جرأة ..

كلا .. كلا .. فما من ساعة يمكن التخلّي عنها ..

_____ *

بيان في الشعر الدي

هي ذي الأرض .. إنها لنا ، وليس ثمة بلاد والونية^(١٠) wallon
وبلاذ فلمندية^(١١) flamand وبلاذ فرنسية والمانية ، وإيطالية وروسية ! .
ليس ثمة سوى الأرض الوحيدة .. الدافئة .. الباردة .. الحمراء ..
الرمادية .. الزرقاء .. المثيرة .. الراقصة ! ..
إنها في يدي طفل تمتد ان نحو ايدينا نحن البشر ! .
إنها في عيني فتى ترنوان إلى أعين الشعراء
إنها في البؤس !
في الشقاء
في الفرح
في اللعب !
إنها في الأشياء كلها .. الأشياء التي ينعكس عليها السحر الإنساني
ليس ثمة سوى الأرض بحكمتها المعدنية الكبرى
إنها خيرنا ..
إنها مدننا ذات العمدة ..

(١٠) منطقة في بلجيكا يتكلم أهلها الفرنسية

(١١) منطقة في بلجيكا يتحدث أهلها بالهولندية

إنها اذاعة رائجة لا يجانب الوسن عينيها

ليس ثمة شيء سوى شغفنا بالمجد ..

سوى ظمنا الى نصر

سوى توقفنا الى شدة

سوى تشوقنا الى حب ا..

ليس ثمة شيء سوى آلتنا الحية الاوفر حياة من بنانا ..

فاليك أيتها الموسيقى العُماليّة أزجي الشكر

انت يا جوقة من مناجم .. من فولاذ .. من عجالات طيعة .. من
سرعات منشدة .

واليك أنت أيتها الظلمات الابدية أزجي الشكر .

انت يا من يعثر فيها الشاعر على بصيص من نور .

واليك أنت أيها الشعر أزجي الشكر - إذ تمسى دانياً من الفقراء
والسلام ..

الا إن الزمن قد أزف كي نتذكر ..

١- أن الشعر تمرّد دائم !

٢- وان القصيدة الاولى كامنة في حياتها .. إن القصيدة الاولى
متوارية في معرفتنا كيف نحياها .

٣- وأن الشعر خاطف .. ينشأ من اثباتات لاتقاوم !

٤- وانه ينطلق من تخوم الضمير نحو آثار الصناعات الانسانية ،
حتى الاوفر تواضعاً !

٥- وانه يقاوم المؤلف ، مادام لا يبرح يصبو الى نظام .. ويطمح
الى يأس ، مادام يستشرف سعادة جديدة .

٦- وانه يكشف متبداً عن فوارق الانسان في عزله الدقيقة

٧- وانه غامض ولاريب .. أعني انه لغز .. إذ كيف يتأتى لنا أن
نفسر الضياء دون الظل الذي يحده !

وكيف يتاح لنا ان نفسر الانسان والعالم ، دون أن نزيح استار
الخفاء سترًا تلو ستر ..

بيد أني اسمعكم ترددون فيساورني الأسى :

((إننا محتاجون الى شعر للإنسان .. اننا محتاجون الى شعر على
قدر الانسان ، ولا شيء سواه .. أما أنتم - ايها الشعراء - فما عليكم
إلا أن تصنعوا اسراركم المقدسة)) ..

الا إنكم على هذا النحو تشوهون الشعر

إنكم على هذا النحو تغدرون به .. تقتلون به .

لأنه أكثر من الانسان الذي تعملون فكركم فيه !..

إنه نبلة .

إنه وجهه اللامرئي !..

فيالعار أولئك الذين ينتقصون منه في ابعاده الوحيدة التي الفناها .

وفي سلوكنا الاجتماعي الوحيد الذي انتهجناه .

يالعار أولئك الذين يمزجونه بالاغنية الشعبية ، لأنهم لن يهبوا له

صدقة شعرية !..

الا فلتعلموا أن الانسانية ماتقدمت قط لو لم يدعها أشد

المغامرين مغامرة ..

ويلتمسها أعنف الجريئين جرأة .. وينشدها اغنى الموهوبين من

أبنائها ... التي دعاها أولئك الذين لم يصنعوا شيئاً سوى إرضاء

حاجتهم من الراحة .. وتسكين جوعهم بوجبات طعام شهية ..

*

بيان في الموت

الا إن الازمان التي نحياها ، عسيرة !
ورغم ذلك فالأزهار تبدو مشيرة الى الربيع
الا إن الحركات تتنفس ريحاً عاتية !
ورغم ذلك فالخاصيل تسمي ذهبية اللون والاشجار تتشبث بالضياء فلا
تميد ابداً

ويبدو أن ثمة حقيقتين تعترضان :
تلزما احدهما بأن نرهف اسماعنا!
ويكبر في وهم الناس في الثانية .. انهم - بالمصادفة - يدعون من عبقريتهم
، او من يأسهم.
ومطلع الأمر أن الحقيقتين متماثلتان ١.
نحن أدرى بأن المدن تشاد ثم تزول كأنها نهار
وأن نكبات من الموت هائلة كامنة فينا ..
تري كم مرة يثبت الشاعر في ميادينها العجيبة ، كيما يجوز مدفناً
بدوره الأرض قاطبة ؟

الا إن الشعر هنا منطق وخميرة فائقان ، ورغم ذلك فإننا نرى أن
الموت يحسك بتلابينا كأنه شوائب معدنية ..

وإن الكون اليوم ليس سوى الموت ، لذا ترانا نعي المراسلات التي
تثير الدهش ، اذ تجنح من حولنا .. وليس الكون فينا سوى ابتذال
لا حدود له من افراحنا ، ومن نهواهم ، ومن محيانا ..

وتفضون بأنكم قادرون على الشكوى من امتداد بعض الأيام.
الا إن الاوان قد آن كي نعي - دون أن يساورنا أسى او يعتزينا
انفعال ، او يتولانا زهو :

١- أن الشعر سيباق الى الموت

٢- وانه اليوم يمزج العصور بالسرعة والاحاسيس

٣- وأن رؤاه العاتية حقائق تجلب اليأس ، وتبعث على القنوط .

٤- وأن الآلات والبيوت ، والحدائق ، والأطفال تصنع العاباً
تهيج العواطف وأن ماهية الشعر نفسها تمسي على شاكلتها .

٥- وان موتنا اليوم أشبه بالشعر ليس سوى دنيوي .. وهو في
هذه الساعة - مادمنا نجيل فيه الفكر - منصف ، عدل !..

لذا ينبغي للأفراح أن تثير اليوم صراخنا من هذه السعادة التي
ندركها في حياتنا ..

كما ينبغي للعيون والبحيرات المشمسة ، والفجر والليالي
والمحركات أن تعي عبْرَ غرابة القصيدة ..

الا إن كل ما يحدث يحيا شديد البطء في انتحار غاية في العذوبة ،
وان مامن شيء سوانا يظل عصياً على المعرفة ، تحت اي ضياء يدور فيه
ظل !..

الا إننا نحيا ازماناً عصبية ، ألفنا الموت فيها

بيد أن الشاعر هنا انسان مدرك

باد للعيان

ينقذ شرف العالم !..

بيان في الثورة

١٩٥٣

الثورة اليوم هي الآلة

ولقد ولدت الآلة من الروح وستظل حية مادامنا احياء .. وعلينا
أن نتمها هادمين النظام الذي توطد قبلها .. وأن نبدل علم الجمال ،
مغيرين معنى السعادة وهونظام ، وعلم جمال يبدعهما الإنسان ، كما
يبدعانه .

قال ((انجلز)) :

((بتغيير الطبيعة ، يتغير الناس أنفسهم)) .

وكتب ((لو كوربوزيه lecorbvsier يقول :

((إن الآلة تعدّل الروح في العالم وتهذبها)) ١ .

فلنرشف اسماعنا - من هنا - الى رسالة حملت لاتشبه موعظة او
نبوءة ، لأن الآلة ملكنا الخاص .

ويضيفون قائلين :

((هامن شيء في الطبيعة يعسي موضوعاً حيال أعيننا التي ترى ، فهي
تدنو من الاتقان النقي في أشد الآلات تواضعاً)) .

ومادروا أن الالة ليست سوى طبيعة جديدة ! .

ايأ كان الأمر فاليكم أين نحن فيها :

إن الغرب يحيا في ظلّ علامة انتقال وغزوماديّ

أمّا بالقياس إلينا - حيث لاثبات لمصير ، بل استمرار في التغيير ،
ودأب في البناء -

فليس ثمة منطق آخر إلّا أن نظل متقدّمين ، معرضين عما يلي ،
هادمين ما انتفت فائدته ولم يجلب لنا نفعاً .

لقد أبدع الانسان - احيانا- على الوجه الأكمل ، فابتكر في لحظة معطاء الخطوط والاشكال التي تعبر كلها عن هذه اللحظة ... وعلى هذا النحو بدت (لاسكو ^(١٢) Iascavx و(ايناس) و(شارتر) ^(١٣) I chartres ..

قال ((شكسبير)) : ((إن قدرتنا كامنة في تفسير عصرنا)).
أما الفولاذ فيسجل اليوم نبأ .. يسجل اتقاننا غريبا .. بعد ان امست الروح غير ما كانت عليه في (لاسكو) و(شارتر) .

لقد أحييت الروح المادة ، وراحت تنزل عليها ، وهانحن اولاء مقذوفون في كون من قوى مدبرة ، تؤودنا فتتها فيشق علينا وصفها .. بيد أن اغنية عظيمة ستتناهى الى اسماعنا فلنصدقها.

وكيف دار الأمر فليست الثورة في (نيويورك) وفي (موسكو) بل هي في شتى الانحاء التي تبلو فيها المحركات ، وتسهر فيها الانباء المحسوبة في حراسة يقظى .

ولو كان في مقدور الفلاسفة أن يتبينوا أن الآلة كانت عبثية ، لاتضح لهم ان كل شيء عبثي ولا ريب .. بيد أنهم تولوا عنها معرضين معملين فكرهم في القضية على النحو الذي ارادوه .

ومن ثم ، عليكم أن تدمنوا النظر في الآلات لتروا انها اتت مبهجة جديدة طبق مبدئهم .. اتت جسدا انسانيا رحبا ، واننا نحن الذين نجتذبها الى سعادتنا ، او ندفعها الى شقائنا ..

(١٢) مدينة فرنسية قرب (مونتياك) اكتشفت فيها عام ١٩٤٠ رسوم حيوانات تعود الى ما قبل التاريخ .
(١٣) مدينة في شمال فرنسا اشتهرت بكاتدرائيتها (القرن ١٢-١٣) التي تعتبر من روائع الفن القوطي في ارجه .

الا إن الثورة اليوم هي الآلة
وهي الساعة مرئية في الأثر المصور
وفي الأثر المنحوت
وفي بيت المهندس

وإن الشاعر - وقد خلا من منهج - يهز قلوب الزمن والفضاء
السحرية ، ولا يفتأ يضحج بالصراخ .
تُرى .. ماذا في ميسورنا أن نصنع لو أن (مَوْتى) دأبوا على
العيش فتشروا من حولنا الوباء دون أن نراهم .. دون أن نحسهم ..
دون أن نفهمهم .. دون أن نأملهم ؟ .
لا يخالجنى شك في أن كل شيء سيضطرب كما لو أن الفجر
الرنان ينبىء بأنه كان في نهاية العالم .
لن يكون لنا خيار إلا أن نشرع بمغامرة مثيرة ..
أعنى : سيادة الإنسان إن شئتم ..

_____ * _____

دعوة الى التمرد ١٩٥٤

في ميسورنا أن نطرح سؤالاً

اين الحقيقة ؟

واين توجد حقيقة ؟

((في هذه البليلة التي تحف بنا ؟)) وهي اليوم فكرة ملائمة ا.

الا إن الشبان لوائقون أشد الثقة بالعالم .. وهم فيه أكثر حساسية .. فهل تراهم يخطئون إن هم قالوا لنا :

((علام نبدع في ظل التهديد الذي يهيمن على المجتمع برمته؟))

لقد كان الظرف - عقب الحرب العالمية الاولى - مختلفاً جداً .. فاولئك الذين بلغوا مبلغ الرجال رأوا عالماً اخلاقياً ينهار ، اشتد فيه ذهولهم ، فمضوا نحو المستقبل واثبين يحدوهم إيمان بالغ الأثر .. وعاد هذا الجيل في عصره الى صوابه ، فصالح عدداً من الأحكام وأئمنى الشعور ببعض أبعاد جديدة ، فكان مزهواً ، عنيداً ، متمرداً .. وحل العالم ثانية - خلال هذا الزمن المدمى الكريه - وراحت أشباح خلناها قد فئيت الى الأبد تهزأ الى جوارنا متهانفة من الضحك ، فكانت (بو شنو الد (b vchenwald) وكانت (هيروشيما)ا.

فاذا كان القنوط والكلال قد بديا اليوم وهما يقودان خيار الناس فليس يعني هذا أن على الفتوحات المنجزة أن تمسي في خطر ، لأن الظاهرات التي تتميز حضارتنا مزدوجة ولن يساورنا شك في انها تتحدد إما تحديد ، خلال اشكال محددة فتبني الأمم .

الا إن ثمة عقولاً جمة تحفّ بنا تفوّقت بالأمل والقنوط - وهما قطبان من اقطاب الفن - وإن علوماً جمة خارقة - كافية لانقاصها وجدانياً - الغزارة الوافرة في مآسينا وانتصاراتنا بيد أننا لودرسنا تنظيم الفن لثبت لنا أن قوى رجعية عمياء على نحو فظيع تضع عراقيل في دروب المستقبل .. تهيجها القصيدة الحديثة كأنها جنون أو تحدّ .

فيالساعة الشبان ، انهم هم الذين ينبغي لهم أن ينقذوا شرف العالم واثقين من ان كل شيء يبدأ منهم ، وإن شعرا لايرح يحلّ محل شعر قديم وأن لاراحة لهم البتة إلا إذا أبصروا الفن دؤوبا على الابتكار، ورأوا الحياة والموت وقد داخلهما سرور من اجل الشعر وأن الاخلاق قوّته ، شريطة ألا يزرروا بأعمال الناس التافهة ، او يستهينوا بالأحداث اليومية الصغيرة ، التي هي علامات الفتنة التي نعوم فيها ، لأن العصر ينوء بأعباء ثورة ، وان اسراراً تؤوده تعرض نفسها لمن شاء أن يعي الانظمة فيدرك الاحداث ، ويفهم الانسجومات العميقة .

إن على فرحنا إذن أن يمتزج بصور العالم .. عالمنا !

وعلى قنوطنا أن يتلاءم مع الأشكال فيسوّغ من خلالها سلوكه .

لأن الاسوار في تخوم القصيدة فعل جراءة .. وحيناً تمرد .

ولعل الشعر حبّ ، وقد يمسي بفضاً .. وما انفك دؤوبا على النضال

الا إن الاوان قد آن اليوم لينطلق نداء للغيب

ولمن خلا قلبه من الرأفة

وللحتميّ

وإنه لتمرّد شعريّ .

*

بيان

في ملامة الشعراء المتعجبين ١٩٥٥

في اللحظة التي لا تكف فيها العلوم عن الابتكار ...
وفي الهنيهة التي يؤكد فيها - بقوة مذهلة - كل ماتبتغيه الحياة
او الموت !
يدو الشعر حائراً متزهداً أكثر من الفنون التشكيلية في الاسهام
بالحماسة الشاملة !
واننا لعلى بينة من أن الشاعر ارتضى - بزهوة المساعد - أن
يمسي مؤتمن حقيقة خارجة عن عصر .. خارجة عن عالم .. وانه لن
يكون بيننا إلا ليعبر عن احساس (خالدة) فيتيح له تعبيره المرور اعمى
في مدن الارض الدافئة .
أترى من اجل هذا الباعث ، نبحث عبثاً عن افراحنا في العلياء .
الجم من الكتب
وفي بعض أفكار جديدة ، وفي صدى عصر مذهب ذي دلائل
عميقة ؟
الا ليست تلك إلا قصائد ، عيونها عالقة بالسماء بكافة الرموز
المكررة الف مرة .
ورغم ذلك ففي منتصف هذا القرن اضاء لفيف من الكتاب
صور العالم الخفية طارحين آثاراً ، محررين احدى أقوى معركة في الفن
بهدهم اشكالاً قديمة ، وفهمهم الاشياء ، وادراكهم اياها ، حاثين
التقصي الشعري الذي لم يكن له منفذ قط ..

فياله من حب عابر خارق ، أضاء (الدادائية) و (المستقبلية)
(السريالية) فكان نصرها في الواقع نصراً تاماً .. تاماً جداً ، إذ بدا
مذاباً في ريح العصر .

ولما كان ذلك عملاً من الشبان رائعا ، ينبغي له أن يمتد في
الكهولة ، بعد أن آلى الشعراء على أنفسهم أن يظلوا متجانسين مع
ذواتهم .

ورغم ذلك فإن (مارينيتي marinetti) شاعر المستقبلية المتحمس ،
وشاعر العنف والمدينة والآلة ((الاجمل معه انتصار (ساموثراس^(١٤)
samothrace) . قد ختم وحده حياته ، صادقاً دوماً مع نفسه ، والمجتمع
الذي اصطفاه !.

ماذا عساي أن أقول عن كثيرين سواه ، ممن لم يؤثروا الجراحة -
كما يبدو - على ملاقة الانسان الذي كان قديماً ؟

ماذا عساي أن أقول عن اولئك الفنانين الذين - بعد أن أسهموا
في الكشف عن كنز شعري لا ينضب - ما برحوا اليوم بجهوليين ،
مطيعين ، مطرّين فناً يخلو من لغز وما ذلك إلا ((من أجل خير الشعب
الأعظم)) .. كلا ليس سوى الفن الذي عليه أن يمسي (للشعب)
اولاً .. بيد أن على الشعب أن يمسي مجتذباً لتذوقه .. لفهمه للرضى
عنه .. وإنه لأمر جد عسير ، فلكم من كتاب يحسون أنهم مدعوون
(للعمل) من اجل الشعب ودعمه ، والذود عنه ، فأيهم أوفر احتراماً ،
واوفى حتمية ؟.

الافلنرج لهم التحية ، إن هم ادوا امانتهم بايمان .

ولكن ثمة سواهم من ذوي النزوات الذين آدتهم الاسرار من
الكبار والملهمين ، والانبياء ، والقديسين ، والمسوسين ، والملوثين ،
والمرعبين من فرط عذوبتهم ، والباحثين عن العضلات ، ورواد (فيافينا

(١٤) جزيرة في بحر ايجه نشبت فيها معركة بحرية حوالي عام ٣٠٦ ق . م .

الحية) الذين ينبغي لنا أن نعثر لهم - رغم ذلك - على ركن صغير
يلوذون به .

ماذا عساي أن أقول - على سبيل المثال - عن
(شيريكو^(١٥) chirico)) وتماثيله العجيبة ؟

ماذا عساي أن أقول عن عوالمه الأنأى عن الحياة .. عن الموت ؟.
هاهوذا يعدو خلف ماضيه ، فيضيع سدى سعيه الحثيث الى
التنكر له ، والتبرؤ منه . واية خشية ، واية ندامة اربكت هذا الفنان
الواهن العزم ، الخائر القوى ، فاختلط عليه الأمر ، وضعفت حيلته

لقد كانت لديك أضواء في عينيك بالغة الاثر !
أتراها الشيخوخة الحزينة التي قسرتك علي الحرب من قائد المرتزة
الذي كنته مخافة الأتمسي إلا موظفا ، او مؤرخا ، او مفسرا في الجبهة ؟

ألا إن عالماً في ثورة يحف بنا
فأين تراها القصائد التي اغتنت بعقريتها ؟
لن يخالجنني شك في انها ثمة في اعوامكم الجميلة .
وعليكم الا تدعوها تتغير ، لأن لديها رغبة في أن تصرخ بكم في
صوت ضائع هاتفة .

((يارفاق الرحلات الجريئة .
حذار أن تشفوا علي الشيخوخة
فالشعر لن يبرح فتيا ، وإنه ليبتكر نفسه على مدى الايام
وأنا بفضلكم ، ورغماً عنكم ، نؤمن بأن عليه أن يمسي تمرّداً ..
أعني أن يمسي حراً .

لأنه حقاً مفيد للإنسانية .. بيد أننا من أجل كل ماصنعموه
للشعر فظل راسخا في الذاكرة لا يُنسى .. سنظل ماعشنا حافظين لكم
مكانا رحبا في قلوبنا)) ..

(١٥) رسام ومثال إيطالي سريالي .

بيان بين عالمين

١٩٥٦

لقد الفينا أنفسنا بين عالمين ..

ليس بين الشرق والغرب فحسب ، بل بمخاضة بين حضارة تموت وحضارة اخرى تولد .. وليس لدينا سوى آثارنا الفنية التي تعبر عن حالنا الوسيطة واليكم كيف نتلقاها :

أرهفوا اسماعكم الى مايقوله اليسار :

((إن فنكم الطليعي ملوث ، يصدر عن ثقافة بالية صنعت عصرها ، وهو ليس اكثر من امر يؤول الى زوال ، لأنه يسمو على جماهير تخلت عنها .. وذلك هو الانحطاط ، وان على الفن أن يتحدث الى الشعب ويخدمه .. وان الحوار مجد ..))

ثم اصيخوا اسماعكم مصغين الى مايهتف به اليمين :

((إن الفنان البدائي ^(١٦) الذي عليه أن يماثل فنانينا المحدثين ، مزيج من متشردين من حثالة الناس ، ومن زنوج افريقيين ، وطلاب ثانويات في الخامسة عشرة من عمرهم ، وان اسماعنا الحديثة لتزري بعلم النفس)) (الدوس هكسلي) .

إن مبلغ اهتمامهم أن يضيفوا أن الأكثر رهبة في الديانات ماصدر عن الآلة ، وأن الحدث ثمة .. وأن الآلة تبرز ، وأن كل الصور القديمة يضمحل ، وأن عالماً متبايناً قدبدا للعيان ، وبالتالي إنها بداية ولادة

(١٦) فنان ينتسب الى عهد قديم سابق لعصر النهضة الأوروبية .

إنسان جديد ، وفن مجهول ، لا يرح لغز الحياة فيه هو الأعظم تجوز
رقاه بين مصانعنا ، وأجهزة حروبنا ، وثمانيلنا ، وقصائدنا .

لذا ينبغي لنا أن ندأب - في هذه الثورة الشاملة - على الاغتناء
بالماضي فحسب ، وأن نعيش ضد التيار ، مزودين بجملة أفكار
مستهلكة ، ودراسات أخرى ولغات أخرى أشد إلحاحاً في البداية
بلغات خفية من العلم الذي نتعلم فيه طويلاً على ضوء القمر ، النجوم ،
والعصر ، والحب الذي اتحد فيه الشعراء القدامى كافة .

الا إن فناً يستكشف اليوم نفسه ، وإن منحطين ينوبون عن افراد،
ومتشردين يخلفون آخرين ، وارقاء يعتاضون عن نخبة ساخرة ا .

ذلكم هو فهمهم اياكم ايها الشعراء الاذكياء ا

ورغم كل شيء ينبغي لكم أن تجحدوا في مغامرتكم التنبؤية ، دونما
باعث أو أمل ، أو أي مصير إلا ما يدفع قدما افكاركم المستحيلة ا .

ذلكم هو الشعر الذي يوائم الحرية من نحو آخر .

لذا ينبغي لنا أن نكون على وعي في حضارتنا اولانكون . اما
الماضي فخديعة ، انه سم زعاف وتعذيب .. يتحرر في هيئة ومهل من
جمال جديد ، يستخدمون في بحثهم عنه ، ودعمهم اياه ، ألجمع التقاليد
التي تليق به ، ما دام أن التغيير قانوننا ، وإن مامن نظام لا يقوى على
إبطال السر الأكثر عمقاً في العالم .

على هذا النحو يستخدمون الانسان حقاً فيرسخ الحوار .. بيد أن
الفنان هو الذي يقوده ..

*

بيان في العالم ٢٠٠٠

يؤكد الواقع أن فننا مليء بالانقراض ، مفعم بالأشباح ، مترع بالجرائيم والتنانين والصيحات الممجمة .. وأنه يرى من صمت ناء ، وكائنات بدائية تجريدية .

لماذا ؟

لأن العالم القديم أخذ يتفجر ..

وأنا أخذنا في بحران دوامات عاتية .

الا إن ما قبل التاريخ ليعلن عن نفسه .. بجرائمه ، وصيحاته ، وتنانينه ، وأشباحه التي تطفئ - بوفرة نبوية - على تصويرنا .. على موسيقانا .. على قصائدنا .

وأن ليس من العسير علينا التأكد من أننا ننحت صواناً ، وأنها نحفر مغاور ، وان لدينا رقصنا بالنار كذلك .

ألا إن كل شيء في الفن يجأر اليوم بالشكوى من فناء حضارة ، او ينتشي بها حسب منهجه .. وانه يتنبأ بحضارة جديدة ، فيهرب أحيانا موارد رأسه في رمالنا المواراة او مزرية بها ، متحدياً إياها .

ولن يساورنا شك في أننا لم نخلق لهذا الصخب الهائل ، كما أننا لم
نخلق بالأحرى لهذه السرعات العظيمة ، بيد أننا ارتضيناها ، وقد ملأت
الغبطة اعطافنا .

ولئن تعالت من حولنا اغاريد تافهة بدورها .. ولئن اكتفى
فنانون بدورهم ((بنظم الشعر)) - وهم ((ينظمونه)) في تصوير ،
كما ((ينظمونه)) في تمثال او موسيقا -

فذلك لأنه ليس في ميسورنا ادراك انفجار العالم إلا بالفكرة
الراشدة !..

وان لقيفاً منهم فحسب ، يحدسون بما يصنع خصب الآلات
الهائل بالروح .. هذه (الثروة المسحورة) كما يقول (ب . م شوهل
pm s c hvhl) !.

ولاتكاد معجزتهم تبدأ حتى تكنس اليوم نفثة^(١٧) قلق المثقفين
وجذلم ، فتثير في الروح مداً وجزراً مجهولين .

الا إن كل شيء غامض بدوره ، بيد أن الفنان آت ، وعندئذ
تشرع الأشياء في الحياة .

وليس من شك في أن دوراً مقدساً يترقب الشعراء الحقيقيين
يناقض الامتثالة^(١٨) الممكنة - التي لن تكون الاولى - لذا ينبغي لهم أن
يناضلوا .. اعني أن يهزجوا بالغناء ، وأن ييوحوا بما يكتنون ، وأن
يعاودوا التفكير فيما ييوحون به في عالم متباين ، لأن الخلود يدعو
الحرية .

وإنهم ليتساءلون اليوم عما ستغدو عليه أوروبا في الانتصار
الأرضي المقبل .. هل ستضحى عقولهم اوفر عبثاً ، واشد وضوحاً
وجلاء ؟

(١٧) Angoisse احساس مارراني يتولد حسب الفلسفة المعاصرة وبخاد

الفلسفة الوجودية من التفكير في الوجود والعدم .

(١٨) Conformesme نزعة للتقيّد بالأعراف المقررة

وتمسي قلوبهم أتمى عفة وامانة ؟
الا إن أوروبا لتتمادى في طلب المغفرة
وعلى اية حال فإن الأمر - في الغالب - منوط بنسياننا لغتنا
الميتة، وكتابتنا البالية .
ولئن كانت الدادائية ^(١٩) ضرباً من الحشرجة ، فإن التكعيبية ^(٢٠)
والمستقبلية ^(٢١) والسريالية ^(٢٢) أشبه بأحاساس داخلية هاجسة .
وليس الفن التجريديّ اليوم بأكثر من تحدّ .
وان عبقريته المريحة جداً والوشيجة لن تحرك الشعور البتة ، إلا
كما يحرك ضياء القمر الرومانسي المنعكس ، صفحة مستنقعات
الأحلام القديمة .
ولقد عبرت الدادائية والتكعيبية والمستقبلية والسريالية والفن
التجريدي عن هذا العصر ، ومجتمعه الفاسد .
الا أننا سنرى خيراً مما رأينا .
سنرى أن قصائد أكثر بساطة ، واشدّ تمهلاً ، وأوفر خفاءً ستولد
.. كما تولد الآلات ،
لأن الآلات بدورها قصائد
فإذا ماغذت اسرارها منابع الفن ، فإن العين ، والمرأة ، والزهرة ،
والسماء ، والطفل ، والفن ، والسعادة ، والشقاء ، ستبدل وجوهها ،
وستبدع ثانية روائع .. ناهيك عن أن السحر الذي نستحجم فيه
لاحدود له ..

*

(١٩) مذهب في الفن والأدب انتشر في سويسرا وفرنسا حوالي ١٩١٦ - ١٩٢٠ وتميّز بالتأكيد على حرية الشكل تخلصاً من القيود التقليدية .
(٢٠) انظر هامش (٢) - (٢١) انظر هامش (١) - (٢٢) حركة ادبية
وفنية هدفها التعبير عن الفكر الصافي مستبعدة كل ما هم اخلاقي او جمالي .

بيان

في الفضاء المغلوب ١٩٥٨

ليست انتصاراتنا اليوم إلا معارك حدود كذلك .. لذا ينبغي لنا
أن نعمل فكرنا في الفتوحات الممكنة !

ولكم يبدو أن الفضاء يعرض نفسه علينا ، لذا فلتكن لدينا (بقية
روح) ولاسيما أن ثمة مصائر تترقبنا تدعو الى المزيد من الاهتمام .

لم يكن الشعراء على خطأ حين وعوا - قبل العالم أجمع - أن
الالات تفضي بنا الى مغامرة هائلة .. وكان على (مارينيتي marinetti)
شاعر المستقبلية أن تعروه رعدة في قبره ، إبان شرع في دورانه اول قمر
اصطناعي ، واننا لنعلم اية نهاية صُنعت له بيد أن القضية ليست ثمة ،
فما ينبغي لنا أن نعلمه أن سر العالم يمتد حيالنا ، فهل ترانا نمسي
جديرين بما تقدمه لنا العبقرية الانسانية ؟

الا إن عقلنا ، وفننا ، وعلمنا لآرضية متحدرة من ارضنا
وضيائنا .. وان شعراً حديثاً قادراً على أن يثير هذياننا حتى الشلوذ ..
ولن يخالفنا شك في أن ما أبدعه الإنسان ، يعيد ابداعه ثانية .

أترى يولد اليوم الانسان الصالح ؟ او الطالح ؟ او الخيّر ؟

لذا ينبغي لكم أن تستعيدوا قلب الشاعر المتزق .

فيا معشر الناس إني لأهواكم .. وأرهب جانبيكم .

وكيف دار الأمر فإن أولى خطأ الطفل تبدأ في هذا الفضاء المبهم
الذي يحفّ بنا .

لذا لا ينبغي لنا أن ننسى صيحات الأرض .
كما ينبغي لنا أن نرهف أسماعنا الى النصائح السامية التي اطلقها
الألمان !.

ألا إني محضتكم حيي يامعشر الناس فكونوا يقظين .. ففي البلبلة
التي ستهيج الروح الانسانية في صراعها مع جنونها الكوني سيدافع
الشاعر عن الحرية .. عن عزلة الفرد المقدسة ..

ولكي نقول كل شيء : سيدافع عن أسرار الفضاء العميقة
عن حساب العلماء ..

وينبغي لنا أن نضيف : سيدافع عن -جلس الشعراء .
واننا سنربح الوقت .

تري ، اي فن مجهول ، واية اغنية غريبة ، سينجمان عن جرأتنا
الجديدة ؟

في ميسورنا أن نعمل الفكر في أن التغلب على الفضاء سيحيي
اليوم حنانا وسيبعث حبا عظيما للأرض القديمة ، لأنها ينبوع جميع
حقائقنا .

ومادام الإنسان يرتاد المطلق ، فلن يلاقي في نهاية رحلاته
الطويلة، الممعة في البعد ، سوى لغز وجهه الخاص ..

_____ * _____

بيان في البنية

او شعر = إسمنت ١٩٩٥

إن للشعر الف شكل !
وإن أولئك الذين ينظمون اشعاراً ليسوا وحدهم الذين اصطفتهم
الآلهة !
فلقد ارتضى الناس كل شيء ، وإن حظهم من الشعر .. ان
حظهم منه أوفر أو أقل اهمية من معجزة يومية .
وعلى هذا النحو تراهم يعانون جميعاً ، — من اشلهم غلظة الى
أوفرهم رقة ورهافة — فرحاً فائقاً في الابداع والخلق .. في (صنع) ..
في الحلم بشيء حسب امكاناتهم .
وبديهي أن ضرباً من حب يصحب عدداً من اعمالهم ..
فليجيلوا البصر في حقولهم .. وليصنعوا أدواتهم .. وليشيدوا
صروحاً حيال السماوات ..
وليلهوا في الرمال .. أو فلتنجس صور ثمينة من شق اقلامهم ..
وانهم ليدعون وأن تقريراً عاطفياً^(٢٣) من سعادة قادر على
التأثير فيهم .. وإن في ميسور الصاعقة الشعرية أن تضربهم .
الا إن الانسان مافتىء يهوى بيته ومدينته ، وما برحت الحيرة
تساوره من ان وجهيهما كانا وجهه نفسه .. وإن آلاته اليوم لأشد

DECHARGE AFFECTEVE (٢٣)

هياماً واقوى نفوذا من الالهة القدامى .. وان الدهشة لتجاذبنا ان نحن جعلناها تهزج بالغناء ، وهي تقسرنا على التأمل في مصيرنا ..

ولو أننا احسنا الحكم لأعدنا القول : ((إن القاطرة تتبع انظمة تحصي البارتنون parthenon وذلك لايماننا بانها جيدة وسليمه ومسليه ، ولو أنها زعزعت الروح المخدرة - أو ببساطة - زعزعت الارواح الرجعية .

الا إنهم لن يعوها البتة كما وعاهما (فيكتور بورجوا victor bourgeoi) فهتف قائلاً :

((لكي نصنع نتاجاً ذي قيمة ، ينبغي لنا - في هذا اليوم - أن ننسى ، كيما نولد ثانية !)) .

الا إن اي عصر لن يورثنا اعمالاً بطولية ، او أفكاراً ما برحت من مكتسبات الانسانية ، بل يورثنا صروحا ، وتمائيل وقصائد ذات مادة صلبة ، فيها من نحو آخر كل شيء يسهل علينا تلاوته كالعلم والفلسفة.

ولئن أبصرت اجيالنا ولادة مفاهيم معمارية جديدة ، فلأن مدينتنا اتت من اعماق العصور ، وعليها أن تدعن اليوم لمقتضيات حضارة اصيلة تنجم عنها آلات .. وان هذه الارادة من القدرة - على الرغم من القلق النفسي^(٢٤) الذي يرهقنا احيانا - تدعونا الى الايمان بالمستقبل والفرح بالحياة .
فياله من شعرا .

إنه بنية ادبية ، جليلة ، هادئة ، منسقة ، منعمة ممتدة كلها نحو الاتقان ، مضيفة جدتها إلى دقة الحساب .. ولكم من اشكال طارئة ستنمو حولنا !

(٢٤) inquietude (في علم النفس) عدم الرضا بالوضع الراهن ، والاضطراب العقلي او العاطفي .

لقد عقلن المهندسون الغربيون افكارهم في ضرب من البيانات اسمه
(ميثاق اثينا) وقد ارادوه كما كتب (جان جيروودو Jean giraudovx)
ميثاقاً للعالم في منابعه وأشكاله الحديثة ، ملتجئين فيه للناس كافة
الشمس والخضرة والفضاء ..

وانه لميثاق يهدف الى بيت خال من العيوب .. إنه قصيدة دائمة،
اوفر شمولية من العالم ..

ايّاً كان الأمر فإن الكثير ين لا يعدون الشعر من هذا العالم ،
ولاجنّاح عليهم إن رأوا ما يتحول بعقريتنا المبدعة .. بيد انهم لو خالوه
ممتزجا بطبيعتنا ، وان مامن انسان يقوى على جعله غريبا ، عندئذ
تكتمل وحدة الشعر والحياة الشاملة من اشجار وازهار ، وأعين ،
وآلات واحلام وبيوت ، وفجر ، وتوهجات صناعية ، يحتويها كلها
مدّ الغنائية نفسه ..

هذا ما كنا المعنا اليه ذات يوم :

إن شعراً يساوي اسمتنا .. وان العار كامن في قدرتنا على الحيلولة
دون الشعراء ودون تغنيهم بالعالم الذي يحيون فيه .. ومارمينا الى إثارة
استنكار ، بل رمينا الى ايجاز قضية ترتبط بالوجود كله .. كما هدّينا
الى توثيق الشعر ودعمه بالمغامرة الأرضية ، ونشدان اعادة الاحترام
للمهندسين لما يؤدونه من آثار خارقة تسوّغ الثورة التي تصنع فنون هذا
العصر .

*

بيان في التأمل

إننا لن نفرغ البتة من الدوران في موروثات متراكمة .. وان
الانسان الذي احسّ اليوم ، قد تعذّر عليه تحديده بدوره .. وان الآتي
من اتقان جديد قد تحرّر ، او يوشك أن يتحرّر من ماض يلحّ عليه ..

لذا ينبغي لنا - ونحن على شفا زمن مجهول - أن نأسف على
البساطات المؤثرة والفوضى المثيرة للاعجاب ، والاحلام المجانية .. وماذا
اكثر من المنطق ؟.

الا إننا قد فرغنا من القول إن نقائص سابقة لأوانها لن تترصدنا ،
يبد أن ضرباً من الوجود ، والحياة ، والتعليل ليتدخل اليوم .
لقد تحدّث (انبياء) عن ردة ممكنة .. عن طهارة مولودة ..
معذبة . عذرية .. عن عودة الى ..

سنرى :

أترانا سنعي حقّ الوعي أن ليس في هذه العودة اية حقيقة تؤول
الى الماضي ، ومن الجائز أن لا تغيرّ خارق يقودنا ؟..

لقد جال في خاطر كثيرين أنهم يرهفون اسماعهم الى شكاة العديد
من الباحثين ، في عصر من التاريخ ، يهب الضلال فيتيح عملاً تحت
العيون ، وفي القلب والروح .. وان العالم الحديث واحصاءات تقضي
بنا الى ظاهرات لا تقهر !.

أتراه نظاماً في خاتمة المطاف ؟.

أتراه نظاماً من وراء الأرض ليس محدداً ؟

نظاماً انسانياً جوهرياً ؟

الا إن الانسان وعنفه الجديد ليمهدان !

وان غنائية خارقة تتجاوز المادة ، ولاتكاد - رغم ذلك - تولد
في صورتها !

وان مشاهد سامية تنهياً !

وان تفسيرات مسكرة أشبه بحقائق تضطرب !

وان المدن والآلات تجلدنا بسطاء ، صبية ، جاهزين !

وان شيئاً ما يتغلغل فينا فيوثقنا الواحد بالآخر ويوهن من
فلسفتنا، ويوقظنا من ألف عام من السهاد ، ويلقينا نحو المستقبل .

وان غرائز الخطر الاولية الفنية - وهي أشبه بارتكاسات - تعيد
اليها الحياة احساس مخدرة ، لتتكفى في النهاية راجعة الى الفضاء
والزمن ، في ثقافة لامعقولة .. ثقافة خرافية عاطفية لاتقي بالغرض ،
توشك أن تتوارى ، ولا يحل شيء محلها إلا اذا اصطفينا بدورنا هذا
الفراغ الذي يدعنا - في الاقل - احراراً ، نشيد فيه فناً ومجتمعاً وفق
مستوانا ..

ومن البديهي جداً أن الشعر قد وسَّع الحدود ، فأمسينا خلالها
ملزمين بالعيش .. ولعلنا - دونما رافة او رحمة - ندرس ونصنف ..
وأن الكثير من الاسرار ، ومن أرض وماء سيتبقى دوماً لنا كيما تنتامي
فيه - وان فقدت الأمل - تهوَّراتنا ، ومحركاتنا ، ونتوء الحياة المذهل ..
وأن العالم سيغدو دوماً فتياً .. وأن مئة ثورة ستتلو ثورتنا !

الا إن في ميسورنا أن نتأمل مرهفين اسماعنا الى مرور هذه الآلات
اللامرئية التي تلوب باحثة عن نيران ليلية، وقد تبدت مزدرية كل ما
لا يدعن لحسابها الطموح .

الا إن في مقدورنا أن نتأمل !
مادامت المصانع ستنتهي ، فتضطّر - هي بدورها - إلى ابداع
قصيدتها!
وإن يوماً يجيء ستعاود حبها العالم الحي ! ..

_____ * _____

بيان في الشعر الذي يكتشفه العالم كل يوم

في ميسورنا أن نطرح سؤالاً :

((ترى .. ماذا يتبقى لنا إن نحن رفضنا الخرافات والاساطير))؟.

ليس ثمة أدنى حقيقة من أن الانسان المتحرر على هذا النحو ،
يلقى حوله عالماً نقياً تابعاً له بغرابة ، اذ لاجدوى من اعمار الفضاء
بوجوه واشكال عبثية ، لأن كل قارة ، وكل شارع ، وكل جبل ،
وكل عين تعبر عن يقين الحياة المدهش ، وليست مهمة الشاعر كامنّة
في تفسيرها ، بل في الكشف عنها ، وهذا مغاير اشد المغايرة !.

نحن نعلم أن العديد من الأنفس القوية تفضل عالماً يعنو للأوهام
القديمة وأن شكاواها واغانيها ، وهمومها ، وآلامها ، أشبه بصلوات
مهملة ، وذلك امر يثير شجناً مفجعاً ، قاتلاً ، عقيماً !

وعلى الرغم من ذلك فإنه يعزى الى مظهر صغير متميز ، معقد ،
يعين حقاً على الحياة كثيراً او قليلاً .. وأن الزمن يسير بدوره ، بيد أن
العالم الذي نكتشفه كل يوم ليس بذى حاجة الى الكثير من الحكمة ،
والكثير من التحفظ والحيلة كيما يفصح عن نفسه !

لذا أمسى لزماً على الشاعر أن يجأ بالصراخ بما هو كائن ،
وعليه أن يعتزله بصراحة ، لأن الشعر الجميل سريع التأثير .

هو ذا العالم ومدنه ، أتراها تكفي ؟

اما بالقياس اليه فإن اوكاراً آلية مؤثرة تعج فوقه ببشاعاتها
ومآسيها وعبقريتها فتمحو دفناً وقلقا خفياً !.

فيأيها الشعراء !

غلوّا ايديكم في قمم الجبال والسقوف ، وروزوا المدن والحروب .. واستبينوا مآثر الفولاذ الجديدة ، فأنتم اليوم احرار ، في بؤرة الامان الوحيدة نفسها التي ينبغي لها أن تفسح لكم في أن تعرفوا أن الشعر يحوّل كل شيء الى صور .. وكل شيء في سبيله ، طيف شمسي .. إنه شكل سام من السرعة ، لايفتأ يتغير فيقوم مظاهر الكون ، هذا الوهم السامي .. وان لكل حشرة ، وقارة ، وكوكب ، وضحك ، القيمة نفسها بالقياس اليه ..

وان كل جسد يغرق فيه يعاني تأثيرات عذبة او مرعبة .. وعلى هذا النحو اشياء الارض ، وخيرنا الوحيد .. وعلى هذا النحو يكون بؤسها وغناها ..

آه ! إننا لنعلم أن على هذا الخير أن يضيف الينا المطلق والخلود ، والإثم الأفضل - كما يقولون - وان المطلق والخلود وذريّاتهما العديدة يخدموننا ، وان كل اشعاعهما الجنوني دليل على جهلنا ..

الا ليس كمثل الشعر !

فلكي يفلت من الفخاخ ينبغي له أن يجابه الحياة ويتحدّاها !
وحين نقول : ((إن الشعر اصطناعي)) فذلك يعني أنه مامن مأساة ولاسر انسانيّ ليس مبعداً .. على العكس ، فقد يحدث أن نكشف عنهما بأصوات أخر ! ووجوه سامية ، كان فيها - للشاعر فحسب - الخدس حتى يومنا هذا !

الا إن الحقيقة بسيطة ، بيد أن ثمة شيئاً من جدارة يمسي الاول فيما تفضى به ، رغم ذلك ! ..

بيان في الحرب والسلام

او قَدَر الشعر

الا فلتتخلوا عن كل حجة باردة .. وكل عاطفة مزيفة!
فأنتم اليوم في عالم لا يبرح حديداً..
يفرغ الشاعر فيه شبابه ، وما من احترام انساني ، ولا عرف
اجتماعي يجولان دون بوحه برسالته المقدسة !..
وانه لبوح - آئذ - يثير الدهش ، على نحو يجوز الناس بنفثات
يعجز عنها الوصف .. ومن العبث التذكر أن كل ذلك لن يظل مريحاً
وملائماً دوماً ، وانه يحقق مطمئناً ما نبغيه وننشده .
ويبدو أن الشاعر يرفض الحياة التي تتوطد في مهمة اذواق عادية ،
وترسخ رغائب ايمان .. وانه ملزم بأن يعد حضور الموت لئلا يفتق
انسانا !
ورغم ذلك فهو ضرب من ضياء اسود على الشاعر أن يلتقيه كل
مرة وسط أبهى مناظره!
الا يعني ذلك أن لاشيء يمضي بعيداً .. وأن ((من يفكر
بدناءة)) - كما يقول (فلوبيير) - يحيد فيدرك أسوأ اعداء الشاعر ..
رفضه نفسه ..

اولئك الذين يستغلون بمباهج سفلية ومباهج ، معنى العجيب في
البطولة ، والقنوط من كل شيء يمسي محمولاً في ذاته بغموض !.

الا إن الشاعر ليحاً ر بالصراخ بأنه وحيد .

بيد أنه لو اوشك أن يتوارى حتى أكثر الشعراء فقدان شعور ،
وبرود عاطفة فإنهم يتأكدون من أن شيئاً ما يعوزهم ، كضباب يرين
على الجميع .. لماذا ؟ لأن من يبدع يتخلى عن لعبته الكبرى ، فيتقاعس
الناس اجمعين ، داخلين في احتمالاته ، فيراهم كلهم دون أن يفقه
شيئاً!

فيا أيها الشعراء !

انتم إذن الغضب والفرح ، وان الف قوة شريرة تترصدكم اليوم !
انتم على اهبة هدم عالم شاء أن يصنع نفسه دونكم ، وإنه ليقاوم
وعيون المرعبة تلحق الضرر بكم .
الا إن الشعر خطير .

وإن عبقرية الانسان تدرككم أيها الشعراء !

فحذار ، حذار أن يداخلكم الخوف من هذا العون ، فإن اصغر
آلة ، والآلات شعر ، والدور المتواضعة ، وبعض الشوارع المبلطة ، ،
والاطفال ، والاشجار ، ، والدروب ، والطرف ، ويدك ، ونظرتك
وهذا الصمت ، وهذا الدفء في اغوار نفوسنا ، لاتعدو كلها مشاركة
وجدانية sympathie فائقة الحد ، لأن الشعر والفنون - كما يقول "
رايندرانات طاغور " - : ((يصونون إيمان الانسان العميق في وحدة
وجوده ، بكل ماهو موجود)) ! .

وأضيف : ((إن الشعر علم صحة العالم)) !

وقد كتب ((مارينتي Marenette)) يقول :

((إن الحرب وحدها هي علم صحة العالم)) .

ولقد رأينا التعريف معلناً في شوارع (روما) بيد أن العالم اجمع
حملة في روحه .. فلنأخذ إذن خيرنا حيثما وجدناه ، لأن الحرب
مافتتت اليوم ناشبة!

أترى قُتلَ الشعر بالعسكريين والرقيب ؟

الا إن الشعر باهظ الثمن !

إنه في الفساد المستشري ؟

في الهستريا الشاملة !

وإن قدره ليسمو إلى مصفّق^(٢٥) الروح .

فعلام يمسي الشاعر كاشف سرّ العالم .. لايهاب إلا ذاته؟

إنه لييدي رأيه .. وإن اغنيته هي وحدها التي ستحيا فوق الجرائم
والدعايات والقوانين ، والامبراطوريات لأنها حقيقة !..

الحق اقول : إن الشاعر يعلم مع (آلان ^(٢٦) alain) أن ((الحرب
كلها انسان لا يغفو البتة)) إنه يناضل ويتمزّق هو نفسه بقوّته الخاصّة
.. فأنتى لشفقة الآخرين أن تناله ، إن لم يشفق هو على نفسه ؟

إنه ليلمسك بالمنافع المادية ، ويتشبّث بالحقوق والعدالة ، بينا
تمسي كل حرب هدماً ، وظلماً ، واهانة ، وجرحاً ، وموتاً لكل
ماصنعه !

يقول الطفل : إني جانع .. إني خائف

إنه الجوع والخوف من الأرض كلّها !

ومن عالم مقرر يمضي في عيونه المؤثرة ، وهو يتألم عبثاً !

وما الطبيعة قاطبة ألاّ حدّس ضخم ، يزداد فيه جهلنا الإنسان !

وهاهو ذا الشعر يغتني بدوره !

_____ *

(٢٥) السوق المالي (البورصة)

(٢٦) فيلسوف وكاتب فرنسي ١٨٦٨ - ١٩٥١

رسالة :

من الفيلسوف الألماني ((نيتشه))^(١)

الى الكاتب العربي ((بشر فارس))^(٢)

عزيزي بشر فارس !

غِبَّ ظهيرة صاخبة عاتية ، خفقت اجنحتها بلظى كأنه الاتون الملتهب .. وفي ظل بيت عتيق ضلَّ عن البيوت .. أمسِكَ اليراع المطيع لأخط اليك - على غير ما اعتدتُ - بعض ما ألهمتني آياه بمجموعتك القصصية الفريدة (سوء تفاهم) .. فلقد أنستُ بها مرتضياً لمعاتها الفنية، معجباً بألوانها الفكرية ، واشراقاتها الذهنية التي تدل على قوة اداء في القصّ الجديد ما بعده آداء .. وتنبئُ ببراعة تصوير سكبتها من كأسك المترعة بخمرة الفن .. وصغتها دمية جلواء تحيّر الطرف، وتسلب اللب فيخفق لاشعاعها القلب السادر الذي غفا على صدر الحياة القلق !

(١) نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف الماني اخذ بمذهب التطور قائلاً إن الحياة ليست سوى تنازع بقاء ، وبقاء الاصلح .. وإن الانسان الأعلى (السوبرمان) هدف يجب الوصول اليه .. كان من مؤسسي العرقية الالمانية .. يتلخص مذهبه بمبادئ (ارادة القوة) .. من أشهر كتبه ((هكذا تكلم زرادشت)) ا.

(٢) بشر فارس (١٩٠٧ - ١٩٦٣) شاعر وقاص وباحث ولد في (بحر صاف - لبنان) وتوفي في القاهرة .. هاجر الى مصر وعاش فيها .. تولى امانة مركز الجمع العلمي المصري له مسرحية (مفرق الطريق) و (جبهة الغيب) وبحوث في التصاوير والزخارف العربية منها (الزخرفة الاسلامية) .. (والموحة) نال بها درجة الدكتوراه من (الصوروبون) بعنوان ((العرض عند العرب)) ومجموعة قصصية بعنوان (سوء تفاهم) ! ..

أقول : صَدْرُ من حياة .. مستعيراً قولك في استهلاكك مجموعتك
"القصّة عندي حَيَّة تنزع من صدر الحياة لا قطعة من الحياة ، كما
يرى القصاصون غالباً ..!" ..! وهو استهلاك - كما ارى - رائع
مشرق - يستدعي الحذر ، ويثير الدهش ، ويعث على التساؤل .
ترى . لمن نسلم هذه (الحية) اذا ما انتزعناها ؟

ومن اولى برؤيتها والاستمتاع بها . ؟
وما الفائدة المرجوة التي نتوخواها منها ؟
وما الغاية التي نهدف الى بلوغها ؟

إن من يتلو مجموعتك يقف حائراً مشدوهاً .. كما ينف
المتطلعون الضامئون الى اسرار الغيب .. فأنت لا تبغى أن تسلم تلك
(الحية) الغالية الى كل قارئ (يتطفل) على قراءة قصصك .. بيد
أنك تبحث عمن يستفز التفكير في امرها ، ويحركه تقلب اوجه الرأي
في استكناه سرها ، كما أبحث انا عن الانسان المتفوق لأقلده زمام
الامور ، وأمنحه قيادة الحياة ليخلق ويسدع ويعث .. وهذا لتمرّك -
مركب صعب ، وطريق وعرة شائكة ، ولا سيما أنك من أمة حياتها
اليوم قلقة ، وآدابها وفنونها حائرة مبلبله ، لما تهتد بعد الى منهج سوي
.. وسماؤها اليوم مد لهمة تعج بالغمام الذي يكاد يحجب عنها النور ..
نور التفتح .. نور الانطلاق من اصفاد التخلف والجمود .. إنها -
وحقك - تريد قاصاً يصوّر آلامها .. يصور احساسها .. يصور
طموحاتها يصور في النهاية هذا الاضطراب الذي يبدو على كل وجه
.. وهذا القلق الذي يُغشي كل جسد ، ويرتسم على كل ملمح ..
يصور هذا الكبت الذي يتململ في اغلاله كل فرد من مواطنيك
يود الانطلاق منه فلا يقوى على الافلات .

ماعليّ ا فلا أدعن امتك تعمه في جهالتها ، وتهوي في غيها ،
ولأدعن كتابها وقصاصيها في (معابد فنهم) يرتلون صلاتهم ،
ويقربون قرايبهم ، ويذهلون ضالّين مضلّين في (وجدهم) مبتهلين إلى
آلهة (الفن للفن) عسى أن تعيد اليهم ما فقدوه من مَرَح ولذة ..
وتبعد عنهم هذا (الضحيح) الذي يتعالى في اجواء يحسون انها شريسة

عنهم .. ناسين هذه الانات الحائرة التي تضطرب في كل صدر ، ويخفق بها كل قلب حيّ في وجودكم .. فتزى ادباءكم وهم عنها معرضون لا يتحسّسون وجودها ولا يدركون أثرها وكأنهم لم يتبينوها ، ولم يحيوها .. وتلك - لعمر الحقّ - خطيئة يقترفها جل ادبائكم .. لا أستثني منهم من كان في الشام او مصر، اولبنان او في غيرها من اقطاركم.

فمتى اليقظة ؟

وايّا الانبعاث ؟ ..

الم تمسّسكم بنارها، هذه الحرب الفروس التي يشنها الغرب عليكم لاستغلالكم ووأدوحدتكم ؟

ام أنها ما برحت بعيدة عن احساسكم ، نائية عن تجاربكم ؟

لأدع ثانية هذا القول الذي لم اجئ لأساجلك فيه ، وأكتب اليك عنه ، ملقيا على بساط البحث آراءك تبنيها من آرائي زخرت بها مجموعتك القصصية (سوء تفاهم) .. وظهرت واضحة جلية في قصتك (الرجل) ..

الم تقلّ على لسان (إنسانك المتفوّق) الذي رام التصعيد في الجبل السحوق ليلغ ما لم يبلغه احد غيره : ((الكون مبذول لنا فليسخر قيوده للعبيد ، لمن يطوّح النظر الى فوق ، وكفه مبسوطة فوق حاجبه .. هذا الجبل يكسر طرفي ، وانا اريد ان احقق اليه واقول له : الآن لا أسارقك النظر ، ولا أخشى لمسك وخطفك ، لأن سيرك انخطف اليّ .. أنت تطويه في رأسك ، وأنا اختلسه في عروقي وابشه انا أفضلك وأبهرك، لأنك صاحب السير ، أما انا فمختلسه .. أنت قبضت المستحيل ، وهوّلت به علينا ، وانا اجعله برجولتي ممكناً)) .

واني لأسألك : اوليس هذا القول قوّي ؟

اولم أنطق به (زارا) الحبيب في كتابي (هكذا تكلم زرادشت) ؟

اولم أدعه يهتف قائلاً لمن حوله من (صعاليك الحياة) : ((انكم تنظرون الى ما فوقكم عندما تشوّقون الى الاعتلاء ، اما انا فقد علوت

حتى اصبحت اتطلع الى ماتحت اقدامي ، فهل فيكم من يمكنه أن يضحك ، وهو واقف على الذرى)) ؟.

ثم قولك : ((انا مصعد في الجبل حتى اغتصب عمري من برائن العدم فأعود سيد نفسي .. اذا ضايقتني أدبتها .. سيد جسمي أفنيه متى أشاء .. سيد روحي اميلها مع هواي .. الروح التي حرمت في شأنها سأقبض على أطرافها ، واجعل لها من عظامي اطارا يخنقها .. انا مصعد)).

الم يأت به قبلك (زارا) ذاته فيردّد في ((الانتصار على الذات)) ((لقد وجب عليّ أن اكون انا الجهاد والمستقبل والهدف .. وان اكون - في الوقت نفسه - الحائل الذي يعترضني في انطلاقي الى هدي ، لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التي عليه أن يسلكها اذا هو لم يدرك حقيقة ارادتي)) .

ثم الم يتدفق بطلبك بقوله : ((انا مصعد ، وسألقي اليكم كل يوم الحجر لأعلمكم بأنني سالم حتى ارجع فتلتفوا حولي ، وتسالوني أن أفتك بهذا الكسيح ، وبهذا المكفوف ، لأنهما طالبا مافاتهما خطره .. انا مصعد)) .

وهو بدوره عين مافاه به (زارا) انساني المتفوق - وهو يخاطب جموعه المحتشدة المائجة حوله .. الداهلة .. الحيرى .. قائلا:

((سأكتشف مكانكم وانا اواجهكم بقهقهات تسقط عليكم من الذرى التي اتسناها ، وها انذا امزق نسيجكم حتى اذا ما اثللكم الغضب وخرجتم من مغاور اكاذيككم تدفقت نفوسكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها)) .

تلك خطرات عابرة لم أردبها إلا وجه الحقيقة السافر الذي اسعى لنيله ، وأرغب في امتلاكه .. ولم ابتغ إلا تذكيركم - انتم العرب - بأنكم على عتبة بعث جديد ، وتفتح وعي ، نلمسهما فيكم منذ امد قريب ، بعد أن سار اغلب كتابكم وشعرائكم على تقليد الغرب في

نثره وشعره دون أن تلتفتوا الى مايقيد نثركم ، وشعركم وإني - في
خاتمة المطاف - تُسزج اليكم نصيحة ارجو أن تأخذوها مأخذ الجد
وتضعونها نصباً أمامكم هاتفا بكم :

تأذروا من شعيرات الغرب مايجلو لكم من غراسها التي تتقبلها
تربتكم .. و-حذار حذار أن تنقلوا الشجيرات التي تأبأها تربتكم ، فإنها
ماخلقت لها .. بل حاولوا (التلقيح) ما أمكنكم ، اذ به تحصلون على
(صنف) من الثمار جديد قد يفوق (صنفنا) وقد يسمو عليه .. ومن
ثم دعوا المستشرقين والمؤرخين الغربيين وشأنهم ، فانهم ماكتبوا
ويكتبون لخيركم .. وماأبدعوا ويبدعون إلا من تأثير تراثكم عليهم ،
وخشيتهم من أحيائكم إياه دعماً لنهضتكم .. وحسبهم أنهم سطوا
على منطوطاتكم الثمينة ، وسعوا جهدهم الى سلبها منكم ، وراحوا
يخفونها عنكم او يفسرونها حسب أهوائهم ، لا بوحى من ضمائرهم
وهي ميتة ، بل بوحى من مقاصدهم وغاياتهم .. فهم الذين شوّهوا
فكركم بما افتروه عليكم .. وهم الذين مسخوا تاريخكم وتراثكم ، ولم
يعترفوا لكم بنتاج فكري عميق ، ولا برأي طريف صائب .. وانهم اذ
يعنون بتراثكم وادبكم القديم انما يخدمون مصالحهم ، سياسية كانت او
دينية او فكرية .. منكرين عليكم أنكم حملتم طوال عصور مشعل
الفكر ايام كانت أوروبا غارقة في خضم الجهل - على حد قول الشاعر
البلجيكي ((مورييس كاريم)) - متناسين قول المؤرخ ((ول
ديورانت)) في دائرة معارفه ((قصة الحضارة)):

((إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل اخذوها عن بابل
ومصر .. وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشأً ، لأن ماورثوه منها
اكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم
مضى عليها ثلاثة آلاف سنة ، وجاءت الى مدائنهم مع مغام التجارة
والحرب)) .

كما اني ناصحكم بأن تدعوا مقولة (الفن للفن) .. دعوها
للغرب يله بها .. ومن حقه أن يلهو وقد بلغ من الحضارة والرقى ما لم

تبلغوهما انتم بعد .. وعليكم أن تأخذوا بفكرة (الفن للحياة) فهي
أجدر بكم ، وأجدي لكم .. ولا سيما أن مجتمعكم مابرح يشكو اليوم
من الوهن في تقدّمه ، والضعف في رقيّه .. ومافتئ يقاسي عناء التخلف
والانحطاط ! ..

علام لاتنتهجون نهج الادباء الروس في القرن التاسع عشر ،
الذين صوّروا مجتمعهم اصدق تصوير وأبرعه ؟ ..
او لم تقرأ قول ((دستيوفسكي)) : ((إن منظر أمّ حزينة ترتدي
السواد والى جانبها طفلها يوحى الى كتابة قصة)) .

اولا يوحى اليكم منظر زوجة شهيد من شهدائكم وهم كثر والى
جانبها اطفالها اليتامى كتابة قصة ؟
الم تصادفوا فقيراً معذماً هذه الجوع ؟ او مواطناً من مواطنكم
كبّله الجهل ؟

الم تلفوا في بيئاتكم من مشاكل الحياة المستعصية ، ومن الوان
القهر ما يحمّلكم على تصويرها والابانة عنها ؟

الم يهجس في نفوسكم - كأدباء - شيء مما تعانیه حياتكم يشير
حماستكم ويدفعكم الى معالجته ؟ قيل إن (كورني) الشاعر الفرنسي
كان يصف الناس كما ينبغي أن يكونوا .. وإن (راسين) خدينه كان
يصفهم كما هم .. فهل اتبع كاتب عربي منكم ، او شاعر او قاص
نهج احدهما ؟ .

الحق اقول : إنكم لاتبرحون بعيدين أشدّ البعد عن مجتمعكم ..
ومافتئت كتبكم ودواوينكم وقصصكم تذهب هباءً دون أن تترك في
مجتمعكم اي تأثير او دوي ! .. او ليس ذلك مما يعاب ؟
او لا يدعنا - نحن الغربيين - أن ننظر اليكم والى نتاجكم بمنظار
الاستعجاب والدهش ؟ ..

هذا ما عنّ لي كتابته اليك ، لأنك - عندي - أقرب الأدباء الى
فهم رسالة الأدب التي هي رسالة الحياة .. ولأنك بالتالي أبعد قادة
الفكر العرب عن معالجة مالا فائدة تجنى منه ولا خير !..

تقبل تمنيات

المخلص

فريدريك نيتشه

— . —

الدكتور بدیع حقّی

شاعراً ومترجماً !

أخي بدیع !

أتذكر الرسالة التي أزعجتك اليك منذ ما يقرب من أربعين عاماً ،
غبت صدور ديبانك ((سحر)) عام ١٩٥٣ بعد ان اجتليت فيه سريرة
نفسك ، ووعيتُ صدق تجربتك الشعرية ، واستوعبتُ ماضيتُ دفناً
الديوان من قصائد رائعة ، استنارت نفسي رؤاها ، وهشت روجي
لأنغامها ، فخففتُ لتوي متهلل الأسرار ، اكاشفك نشوان برد الفعل
الذي اثارته فيّ ، واعلن لك مبتهجاً عن دهشي ، لما فتحت من عوالم
جمالية لاعهد لنا بها ، بخاصة قصائدك ((أرق)) و ((خريف غادة
بولونيا)) و ((ليالي فينا)) و ((ليالي بغداد)) التي استندت فيها علي
تفعيلة واحدة علي وزن ((فعولن)) من البحر ((المتقارب)) متجنباً
شروطه ، معرضاً عن ترديد تفعيلاته السبع الأخر .. أحسن أدباؤنا
آنذاك بحاجة شعرنا الماسة الى هذا المذهب الجديد الذي مهدت له طريقه
((نحو تقنيات واشكال جديدة)) فحققت يابداعك لهذا المذهب قدره
، ووجهت مساره نحو الحداثة ، محرراً اياه من اسار محاكاة شعرنا
القديم واجتراره ، مبتغياً من وراء ذلك - قبل سواك من روّاد شعرنا
الحديث - اعطاء صورة حية في تغيير شكله ومضمونه تغييراً جذرياً ،
وتوجيه انماطه توجيهاً صحيحاً خلّتها - بصادق حدسك - قمينة
بالخروج به من ربة التقليد المهيمنة عليه ، جذيرة بربطها بعجلة الحداثة

، التي رأيتها - بثقافتك الاجنبية المتعددة الجوانب ، واطلاعتك
الدؤوب على روائع الشعر العالمي ضرورة ملحة ، تعكس ما طرأ على
حياتنا من تطور ملموس ، وتلبي حاجته لما رافقه من تجدد ونهوض في
شتى المجالات الفكرية والاجتماعية .. وهو ما هاب بك الى توجيهه
الوجهة التي وجه بها الشاعر ((بودلير)) الشعر الفرنسي في الطريق
الصحيحة التي سار عليها الشعراء الفرنسيون ، كما حفرك الى خلق
هذا المذهب ، واستحداث خصائص تميزه عن خصائصه السابقة التي
درج شعراؤنا على الاخذ بها ، وتدفع به الى تجاوز تلك الخصائص ،
استجابة لحركة التجديد الدائبة في شعر الغرب ، واستقطاباً لما حفل به
هذا الشعر من رؤى واخيلة ، بحيث تفضي بشعرنا الى فتح آفاق عصرية
، كما أفضوا بشعرهم ، وابتداع اشكال جديدة نضيفها مطمئين الى
آفاق شعرنا التقليدي تتسم بطابع العصر الذي نحياه ، وتفصح عن
ابداع شعرائنا المعاصرين الفني ، وتنبي عن اصالتهم وامكاناتهم ،
وما يحملون من خبرات تفرضها ثقافتهم التي اكتسبوها ، وتؤكددها
تجاربهم التي عاينوها ويحققها طموحهم نحو تحديث شعرهم ، الذي لا بد
وان يغدو هدفهم الذي يصبون الى بلوغه ويمسي غايتهم التي ينشدونها
تحققاً لشخصيتهم وامتزاجاً بعصرهم الذي ينزع الى التجديد ، وترسماً
لبواعثه التي لا بد لهم من فهمها والامام بها ، كيما يكتسبوا ابتداع مالم
يسبقوا اليه ، حيث قلت في رسالتي :

((تسايحك الخافضة ، خفوت الهمسة الحائرة التي رتلتها في
صلاتك المجهولة من محراب وحيك الفرد ، ورجعها ديوانك الانيق))
((سحر)) أذكرتني بيهجتها وجرسها الحنون ، لحن الشوق الذي غناه ((
صولون)) المشرع عندما سئل عن اغاني ((سافو)) الشاعرة : ((
افرض انك تموت الآن يا صولون ، فما ذا كنت تشتهي قبل موتك ؟
فقال : اغنية من ((سافو)) أرددها ثم أموت)) :

وبثك الحلو الذي انساب رهواً جميلاً رائعاً ، مع كل بيت من
ابيات ديوانك ، حملني على ان اردد فيه قول جارية ((المهدي)) وقد

أعجبها صوته وهزتها ترانيمه : ((يا سحر غنائك يا مولاي .. هذا والله هو الغناء)) ..

اي والله انه غناء أرسلته من ارغئك الساحر ، وبيانك الفاتن ، واسلوبك الشائق الذي يفتن ويغري ، وكأن من يتلو اغانيك ، يتلو نشيدا ساحرا من اناشيد سليمان او يصيخ الى سمفونية رائعة من سمفونيات بتهوفن .. بلى : اقولها قولة حق وصدق تخلو من عبث المجاملة ، وتندعن علائق الصداقة التي تعبق في اجوائنا .. ولا اخال الذين سيتلون اناشيدك بالروح التي تلوتهما بها ، الا ويشاركونني اعجابي ، ويبادلوني دهشي ! ..

لقد غنيت في قصائدك فأبدعت في الغناء ، ووصفت في الحانك فحلقت في الوصف ورسمت رشتك السمحة ، التي غمستها بممداد قلبك المظهور ، فأضحت على الوانك وتساويلك فنا رائعا ، جميلا متمعا ، اذكرني بقول ((مكسيم غوردي)) ان قوة الفن قد تفوق في التأثير قوة الواقع .. وكان هذا فنك الأنيق ، الذي تبلور في كل رائعة من روائعك وتحلى في كل بيت من ابيات قصائدك الدافئة .. ولعل التأثير الذي يغلب قارئك والتأثر الذي يستحوذ عليه ، يؤكدان انك كنت صادقا مع ذاتك ، مخلصا لوحيك امينا على تسجيل واقعك .. وليس بدعا نحوك هذا المنحى الفريد في شعرك ، وهذا السمو البديع في خيالك ، واهدائك الينا هذا الشعر العالي ، الذي شئت ان تعبر به عن ذاتك ..

والشعر العالي - كما قيل - يعبر دائما عن ذات الفنان ، مهما اتخذ من الخارج من موضوعات للعمل الفني والصور وطرائق الاداء ... والحق انك نجحت بما نجح في أن تهزقارئك ، وأن تبهجه وتسحره ، لافخامة موسيقاك ، بل برقتها .. هذه الرقة التي تناهت حتى كادت تذوب .. ولعل مرد هذا كله ، عائد الى عواطفك المتماسكة ، والى رؤيتك الشعرية الصادقة التي تفردت بها وحدك دون سائر الشعراء الرمزيين ، الذين نهجت نهجهم اوسرت واياهم في السبيل اللاحب

الذي اختطوه في شعرهم .. وما أحييتُ هذا اللون قط مثل حيي لأدائك فيه ولقد كانت ((رمزيتك)) واضحة مفهومة ، بعيدة عن الغموض والابهام وهذا ما جعلها محببة مقبولة ، وليست الاخرين نهجوا في اشعارهم نهجك ، واقتفوا خطاك وأدركوا ان القصد من الرمز- كما يقول ((العلايلي - تبسيط الاشياء المعقدة ، لاتعقيد الاشياء المبسطة .. اذن لزال هذا العداء المستحكم بين ((الرمزية)) واغلب القارئ في شرقنا العربي ، ولاحى من الوجود هذا الحيف المرير الذي يلاقيه مضطراً كارها ، هذا المذهب الادبي الانيق !.. لقد اثبت في اشعارك ان ((الرمزية)) التي عرفت بها ليست في الغموض ولا في الابهام ولا في الاغراق الغريب في الخيال ، ولا في هذا الاغراب العجيب في الاسلوب بل في هذه الصور الفنية المتتابعة ، والالوان السحرية المتعاقبة ، التي كيفتها عواطفك ومشاعرك ، فأضفيت عليها ظلالاً من الموسيقى الناعمة الحنون التي هي نفحة قدسية من نفحاتك .. واني اذ ابشر بفلاحك في ديوانك ((سحر)) أقف حنيهة مع مقدّماتك العميقة التي حلّيتها بها ، فكانت كالعقد النضيد على جيد الحسنة ، لأتلو معك رأيك الحصيف في مهمة الشاعر الملهم الذي هو أنت وارهدف سمعي الى قولك العذب الذي يؤكد أن ((ليست مهمة الشاعر أن يريق النور على فكرته ولكن ان يحياها)) .. وددت لو انقل الى كل قارئ ذواقه مترف الحس ، مرهف الشعور الترانيم الساحرة التي اودعتها قصائدك التي حفل بها ديوانك ، وفاض بها وحيك ، وزخر بألوانها العطرة خيالك ، ولكني ادع هذه الالوان للقارئ تصل اليه لتصبّ في اذنيه انغامها ، وتسلمه كما أسلمتني الى اجواء نقيّة نديّة عطرة فيها من افانين الجدة والجمال مافي الزهرة من نقاء وندى وعطر)) تلك يا أخي بديع ، نبذ من رسالي اليك ، جسّدت فيها رأيي في ديوانك ((سحر)) بعد ان الفيت في قصائده لونا من التعبير الفني نفتقر اليه ، وتفهما لمذهب الحداثة الجديد بكل ما يحمل من خصائص ومميزات تستدعي منا دعم حركة تطور شعرنا شكلاً ومضموناً .

مترجما

=====

اما مايتصل بترجماتك روائع الأدب العالمي الممثلة في ((روائع طاغور في الشعر والمسرح)) و ((المعطف)) و ((اللوحة)) وهما روايتان للكاتب الروسي ((غوغول)) و ((لاتزال الشمس تشرق)) رواية الكاتب الاميركي ((همنغواي)) و ((قصائد مناضلة)) للشاعر الغيني ((احمدسيكوتوري)) فقد حالك التوفيق في ترجمتها ، مؤديا معانيها في جلاء ووضوح ، متوخيا الامانة في النقل مستعينا بمعايشتك وحرصك الشديد على مشاركتهم رؤاهم ، والاندماج في ارواحهم ونقلها اليها في اسلوب صاف مشرق تحرك فيه اوتار قلوب قارئك وتشدهم اليك .. فنراك في ((روائع طاغور)) مثلاً وكأنك قد عرفت الشاعر عن كثب ، فمثل في وهمك انه مائل حيالك مثوله في ذهن الكاتب الفرنسي ((رومان رولان)) حين التقاه فعبر عن هذا اللقاء بقوله :

"حين تقترب من (طاغور) يناسم نفسك شعور أنك في معبد " ولعل ماناسم نفس (رولان) من شعور ، هو عينه الذي ناسم نفسك ، وانت تلج معبده فتنتقل اليها روائعه وكأنك ((تنغم اناشيده خاشعاً متبتلاً)) وذلك دليل اكيد على تألف قلبيكما ومشاركتك احساسه التي خامرت نفسك كمترجم كيما تجاريه في احساسه التي خامرته كشاعر ، لذا فإن الرؤى التي اشرقت في ذهنك فاستأنست بها ، واستلهمت روحها ، فسجلتها في لغتك النصيرة التي لاتبرح تستخلصها لاسلوبك الطريف الذي لايجارى في قوته ومتانته ، مستهدفا خلب افئدة قرائك ، ناشداً ايقاظ نفوسهم ولعل هذه العلاقة الجمالية الصميمية المتبادلة ، هي التي جمعت بين (طاغور) في لغته وبين ترجمتك

آثاره الى لغتك التي يستشفها قارئك من خلال النشوة التي تتملكه عند تلاوتها !.

أما ترجمتك رواية ((المعطف)) لغوغول فقد سحرت بها قراءك - وانا واحد منهم - على نحو جعلهم يزدادون إيماناً بعلو كعبك فيها ، ويشغفون حباً ، وان شعوراً يجاذبني بأنها - لشدة غناها ، وروعة اسلوبك في ادائها - قد أثرت في جل روائيينا ، ان لم اقل كلهم فخرجوا منها خروج الروائيين الروس ، متمثلين مقولة ((دستيفوسكي)): ((لقد خرجنا كلنا من معطف غوغول)) ومبعث ذلك - كما يخيل اليّ - الى شدة غناها وحيويتها والى تعبيرها الصادق عن تجربة انسانية فذة ، استطاع ((غوغول)) - من خلالها - ان يقسر قارئه بالاحساس بحياة بطله البائسة ، احساسهم بجمالية عمله فيها كفنان وربطها اوثق رباط بهذه الحياة ((وهذا الارتباط الوثيق للعلاقة بين الحياة والفن هو مايجب الا ننساه ابداً عند الكلام عن عمل الرواية)) .. وهو ما تهديت اليه بتوفيقك في ترجمتها ، اذ أضفيت عليها - بتمكنك من لغتك ، وقدرتك على التعبير بها - جمالا وسحرا اثارا اهتمام القارئ ، بعالمها الجمالي الذي يسمو بعاطفته ، ويغذي وجدانه !..

تلك - يا اخي بديع - انطباعاتي عن ديوانك ((سحر)) واستمتاعي به ، وعن بعض ترجماتك ومهارتك في نقلها بأسلوبك المميز ابدتها صادقا لا مجاملا ، واثقا بأنك - منذ عرفتك قبل خمسين عاما - وعاشت أدبك واستهوتني روعة اسلوبك ، لاتي تحيا هذا الأدب ، وتحفظ بيهاء هذا الاسلوب مبتغيا ايصال تأثيره الى قارئك ، راميا الى ملء وجدانه ، وبلورة عواطفه ، واغناء تجاربه ، بكل ما أوتيت من جهد وطاقة !..

*

فن الترجمة عند

الدكتور ابراهيم الخيلاني !

لو تأملنا ملياً مقولة ((الجاحظ)) القائلة : ((لا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها)) لرأينا أي ميزان دقيق لاغنية عنه ، يلجأ اليه المترجم الناجح ، كيما نجد في ما يترجمه الخصائص المميّزة الكامنة لاني النص الذي ينقل عنه ، بل في النهج الصحيح السليم الذي يدلنا على احساسه الصادق ، ووعيه الكامل بعمله الذي ينهد له لأنه بعد نفاذه في روح الأثر المترجم ، وفهمه شخصية مؤلفه ، يقدر قيمة هذا العمل ، بعد أن انعقدت بينهما المودة فيوطن نفسه على اعطائه لقارئه ليزيد فيه الاحساس بجماله في ثوبه الجديد .. وهو بهذا الصنيع يثبت لنا مؤكداً لاشخصية المؤلف الذي نقل عنه ، بل شخصيته كذلك فنزداد فيهما رغبة ، لأنه بصنيعه هذا قد حقق وجودين ، وحمل ثقل لغتين ، ليولد مسرتنا ونحن مستغرقون مستمتعون في تلاوة الأثر ، ويوطد اهتمامنا ، وقد استلذذنا الحلاوة التي ذقناها من تلاوتنا ..

ثمّة سؤال يتبادر الى الذهن :

كيف تتأتى للمترجم الناجح هذه الميزة فيستأثر بحسنها ؟

وكيف حصلنا - نحن قراءه - على الغاية المرجوة من ترجمته ؟
ثمّة اجابة دلّ عليها المعنيون بالترجمة أشاروا بآراء سنحت لهم لا يجد

المرّجم عنها معدلاً ، نوجزها بعد ليحيط بها علماً كل من يتصدّى
للتّرجمة ، ويستفرغ فيها جهده ، فلا يدرك قارئه الندم إن ساء ظنه به :

١- " فهم النصّ وفهم الموضوع واستيعابهما بله تمثلهما إن جاز التعبير .

٢- وضع اللفظة العربيّة المقابلة للفظ الأجنبي والدقّة في اختيارها .

٣- إدراك المعنى المقصود حتى لا توضع كلمة في غير موضعها ، أو غير ذات
دلالة تامّة على المعنى المراد .

٤- الإيجاز البليغ الأداء في ترجمة الألفاظ .

٥- ثقافة المترجم اللغويّة وحصيلته الخاصة من الألفاظ والمفردات في اللغتين .

٦- الذوق في اختيار اللفظة .

٧- خفة اللفظة المترجمة على اللسان .

٨- الأسلوب وطريقة الأداء والتعبير وذوق اللغة المنقول إليها .. لأن لكل
لغة خصائصها في التعبير .. والمترجم الناجح يستطيع بما لديه من فرص البيان
والجواز والاستعارة أن يصل إلى قريب مما وصل إليه المترجم عنه "...

تلك هي الشروط التي تهدي إليها المعنيون بالترجمة ، مانحسبها
تحتاج الى بسط وبيان ، حضرنا الساعة ونحن بسبيل القول في ترجمات
الدكتور إبراهيم الكيلاني ، وهي فريدة في نوعها أفنق عمره دائماً
فيها، فدلّت على توفيقه وتمتعه بموهبة المترجم ، وإيمانه بخطورة دوره
فيها ، بخاصة في مايتصل بدراسة تراثنا .. ولكي يظهر هذا الدور على
اكمل وجه وأتمه نراه يندل جهداً مرموقاً في اظهار معرفته الواسعة بأدبنا
القديم من شعر وأخبار وسواها ، ونقلها نقلاً أميناً عن مصادرها
الأصلية ، كيما يرجع إليها القارئ أنى شاء فيدرك منها حاجته ،
ويوليها اهتمامه وحين نستعرض الكتب القيّمة التي ترجمها ، وتعد
مصادر هامّة للباحثين في تراثنا ، تأسرنا جودة صياغتها ، وتبهرننا بقوة
أدائها ، وسحر بلاغتها ، فهو يختار لكل جملة مترجمة اللفظ الملائم لها
الذي هو أخص بها واكشف عنها فتكون الجملة ، وهي على درجة من

الوضوح والدقة ، ومتانة السبك وجزالته ومهارة تقنيته ، ووضحة الدلالة على صحة وعيه النص ، وذكاء فهمه له ، ودقة معرفته كنهه ، وبراعة كشفه عن سرّه ، وبالتالي فرض حضوره كمتّرجم يعي رسالته ... وهنا لا نجد بداً من ان ندلّ على بعض من آثاره المترجمة ، ونشير الى ما حفلت به من افكار فريدة تهّم الباحثين والقراء معاً ، مكتفين بموجز عنها ، مسعفين القارئ بحاجته مما اجتلينا فيها !..

١- تاريخ الادب العربي - ثلاثة اجزاء - صدر عام ١٩٧٣ -
تأليف المستعرب الفرنسي د . ر . بلاشير .. حاول فيه مؤلفه - كما يشير المترجم الربط بين تطور المجتمعات والوقائع الادبية .. مغايراً عما سبقه من تواريخ الادب بامور منها ..
أ- العناية باشعاعات المراكز العقلية والتيارات الفكرية في العالم العربي .

ب - اكتشاف انواع من ((الزمر العقلية)) المكونة من عباقرة الأدب العربي الذين اثروا في بيئاتهم وتأثروا بها فأصبحوا بذلك امثلة تحتذى لمن عاصرهم وجاء بعدهم ، بما اوجدوا من مذاهب او نماذج ادبية جديدة .

ت - إبعاد كثير من الآثار الفلسفية والتاريخية واللغوية والفقهية وغيرها ، مما يدخل في نطاق الأدب الصرف ، والاقتصار على الآثار التي ألقت لغاية فنية والتي تثير عند القارئ ما يسميه ((فالييري)) ((بالحال الشعرية)) .

٢- ابو الطيب المتنبي للمستعرب د . ر . بلاشير كذلك درس فيه مؤلفه دراسة موضوعية معمقة شاعر العرب الاكبر ابا الطيب المتنبي ((وهي اولى الدراسات القيمة الاساسية التي ألفها اجنبي أحب لغة العرب وتذوق أدبهم ، والتي أفاد منها اكثر من واحد من المؤلفين العرب المعاصرين .. فلهذا البحث مزايا منها :

- تقيّد المؤلف بالمنهج التاريخي الدقيق ، وانطلاقه من مبدأ وجوب توافق تسلسل الاحداث التاريخية مع سيرة الشاعر وتفاعلها الحتمي للوصول الى الحقيقة .

- طرح قضايا عدّة ذات علاقة بالجوانب الغامضة في اصل المتنبيّ وحياته ، وسلوكه وعقيدته ومحاولة جلائها والوصول الى نتائج حاسمة .
- موقف المؤلف المتشدد من الاساليب الدراسية والتأليفية التي اتبعها المؤلفون العرب في الكتابة عن شاعرهم العظيم .
- مواقف نقدية للمؤلف تجاه سلوك المتنبي وشعره وتناقضاته ، متبعاً بذلك منهج النقد الموضوعي والادب المقارن)) .
- ٣- الجاحظ - في البصرة وبغداد وسامراء - تأليف المستعرب الفرنسي الدكتور شارل بلا .

((وقد اشتملت هذه الدراسة الموضوعية عن الوسط البصري ، على كل ماله علاقة بمدينة البصرة منذ القرن الاول الهجريّ حتى زمان الجاحظ من الناحية الاجتماعية والادبية والفكرية والاقتصادية مع الحرص على اظهار التفاعلات التي عملت على بناء شخصيّة الجاحظ وذهنيته الجبارة))..

- ٤- الغزل عند العرب - في جزئين - تأليف المستعرب الفرنسي ج . ك . فاديه تحدّث مؤلفه - في جزئه الاول - عن الروح العذرية في الشعر والعصر الجاهلي حتى القرن الثالث الهجري ، موردا اهم شعراء الغزل كعمر بن ابي ربيعة ممثلاً الروح العذرية في الوسط الاجتماعي للحجاز وبشار بن برد والعذرية في الشعر العراقي في زمنه .

وتناول في جزئه الثاني : شاعر العذرية العباس بن الأحنف ، دارساً حياته وشعره وعصره ، مشيراً الى اصالته في قصائده الطويلة والقصيرة ، وبراعته في النوعين كليهما وصلاتهما بالعذرية ، مصوراً العذرية خارج نطاق الشعر من القرن الثالث الى القرن الخامس الهجري - من التاسع الى الحادي عشر الميلادي - مستشهداً بابن داود الاصبهاني وابن يحيى الوشاء (٣٢٥هـ) .. تلك هي الخطوط العريضة لبعض ترجمات الدكتور الكيلاني التي تعد ميزاناً دقيقاً بالغ الدقة لامانة الترجمة وفنيتها على حد سواء ((لم يخرم مما ترجم حرفاً من

اللفظ ، ولا لمحة من المعنى)) لاعتماده على الفهم السليم والاحساس المرهف ، والذوق الحسن ، وتمثله روح المؤلف الذي يترجم اثره بعد ان تشبع بها واستوعبها ، بحيث غدا الأثر قطعة فنية تلائم تلك الروح ولاتناكرها ، وتعرب عنها ولا تطمس معالمها ..

ولئن امتاز بألفاظ ملائمة أشد الملاءمة في ترجمته ، لقد امتاز كذلك بالفاظ لا قبل لنابها بثها في ترجماته تنسب اليه وحده ، يجدر بالمرجمين الأخذ بها والاعتماد عليها ، نورد ههنا بعضاً منها :

التسافح : osmose ((تبادل يحصل بين سوائل مختلفة الكثافة ، مفصولة بعضها عن بعض بغشاء عضوي حتى يتجانس تركيبها)) .

الذُرْجَة : mode

اطروفة : conceiti

عقيدية : dogmatisme (الانطلاق من رأي او وجهة نظر وكأنها عقيدة).

تثاقف : acculturation

الأمثلة : idealisation

شيات : respectabilite

القياسات الاناسية : anthropometrique

التأسل : atavisme (عودة الى صفات الاسلاف التي عنها أخذت الانسال السابقة) ...

وبعد ..

فان من نافلة القول التنويه بجودة الترجمات التي وافانا بها الدكتور الكيلاني والاشادة بأمانتها ليقيننا بأنها تعدّ نماذج للتفوق في الترجمة والحدق فيها ، بما اسبغ عليها من ثقافته وفهمه وذوقه ، حتى كادت تبلغ ذروة الكمال .

وعلى هذا النحو فهي رافدةٌ يسهم إيمانهم في تكوين نهضتنا الفكرية والأدبية ودعمها ..!

ثمة سؤال أخير يتصل بهذه الترجمات الالامينة القدوة لامندوحة لنا عن طرحه :

اتراها مذهباً جديداً في الترجمة جاء به الدكتور الكيلاني كرد فعل للترجمات الرديئة المشوهة التي تزخر بها مكتبائنا وإفاننا بها مترجمون طفيليون زائفون ليس لهم موهبة المترجم ولاذوقه وثقافته ، بله ليس لديهم المام كاف بقواعد الترجمة وفنها ، وهما شرطان مهمان كافيان لابداع المترجم المثقف الكفء الجدير بحمل هذه الرسالة التي نحن بأشد الحاجة اليها ولاسيما ان الترجمة شأنها شأن الملكات الادبية التي تتوافر للشاعر والكاتب على حد سواء كيما يستحق ان نصف عملهما بالاصالة فنقول هذا شاعر اصيل وذاك كاتب مبدع ، وبالتالي فان المترجم الحاذق الذي وهب ملكة الترجمة يحق لنا ان نعتنه بالاصالة ، وانه مبدع بدوره ...

الحق ان الدكتور ابراهيم الكيلاني بترجماته لامهات الكتب الفرنسية التي تتحدث عن تراثنا وفكرنا وتاريخنا الادبي ، وفي سواها مما يرفد ثقافتنا ويدعم نهضتنا ، قد أدى عملاً متميزاً في سبيل دفع حركة الترجمة في وطننا العربي الى الامام ولست مغالياً . اذا قلت ان هذا العمل المتميز قد جعل منه قدوة ومثلاً يحتذى لكل من يتصدى للترجمة اياً كان نوعها ، لأنه اتانا بالنافع الممتع معاً .. اتانا بالفن الذي يضيف جديداً الى ترجمائنا .. اعنى طريقته الصحيحة في التعبير ومنهجه السليم في اجادة النقل باستقصائه اللغة المناسبة والصيغ الملائمة التي تتكيف وفق مقتضيات النص الذي ينقل عنه .. اعنى فهمه له ، واحساسه به ودقته في ادائه ، وذوقه ، واجادته لغته واللغة التي ينقل عنها ، وتلك مميزة لا يؤتاها الا الموهوبون الذين انفردوا بصحة الفطرة ، واستأثروا بصواب الفكر ، وتحمّلوا بذكاء الفهم ..!

جولة في ديوان ((من الأعماق)) !

ثمة سؤال يطرح نفسه :

من اين تجيء المتعة الجمالية التي تحدثها قصيدة شائقة ؟

أمن موهبة الشاعر ؟ ام من صدق تجربته الشعورية ؟

ام من نزعتة الانسانية .. ؟

الجواب الذي يتبادر الى الذهن للتو واللحظة .. انها تجيء من هذه العوامل كلها . ومبعث ذلك ان الموهبة - كما يصفها الدارسون - لاتعدو ((مقدرة في الانتاج الفني تنأتى عن مهارة او قريحة في صاحبها مساعدة على التألق والتفوق على اقرانه)) .. وان التجربة الشعورية ((بمجموع الاحساسات والمشاعر والأفكار التي تتراكم في نفس الفنان او الشاعر او الاديب ، وتكون محصلاً لاحتكاكه بمجتمعه وطرائق اتصاله به والتفاعل بينهما .. وهذه التجربة تكون عنصراً أساسياً في شخصيته الفنية التي تبرز في آثاره))!

وان نزعتة الانسانية هي الحال ((التي يرجع اليها الانسان في رأيه وأمره وتدبيره)) وهي بالتالي الهمة التي تعزّيه للسموّ بهمته ..!

هذه العوامل - في رأينا - تمهد لها ايجاعات تنبئ متذوقي الشعر بأنهم حيال شاعر موهوب لا يملك صدق التعبير عن مزاجه وتجاربه ورؤاه باعتبارها مرآة مجلوة لحياته ومجتمعه فحسب ، بل يملك التعبير عن امزجة وتجارب ورؤى متذوقي شعره وحياتهم ومجتمعهم كذلك فتراهم يتفاعلون معها اشدّ التفاعل ، ويهتمون بها غاية الاهتمام ..

مأخوذين بتصويره احساسيه التي لاتعدوا احساسهم هم .. معجبين بطابعه الجمالي الذي هو طابعهم المنعكس عليهم الكاشف لهم عن ظاهرة في وجودهم كانت من قبل خافية عليهم ..

من هذا المنطلق ، نخال ان الشاعر (عبد العزيز عزوي) قد اكتسب في ديوانه (من الاعماق) هذه الخصائص المميزة .. فكان ذا موهبة ساعدته في التعبير عن خواجه ، وذا تجربة شعورية صادقة اهله للاحتكاك بمجتمعه والتفاعل معه ، مما جعله يحدث في قارئه هذه السورة المستملحة التي يطرب إما طرب لنشوتها .. ويثير ذلك الانفعال الذي ترتاح اليه نفسه .. ويعكس تلك الالحماءات الحية المتحركة التي كشف فيها عن واقع امته المريع ، الذي حيزت في نفسه مرارته فأرملت جوانبه وعن حياتها المضطربة التي يكذب فؤاده مما يراه فيها من اعوجاج مستهفه - كشاعر - بأساء وضراء ضاق بهما ذرعاً ..!

ولعل مما يسترعي النظر ، ويثير الدهش حقاً ان الديوان خلا خلواً ملحوظاً من التغزل بالمرأة والتغني بها ، مغايراً مآدرج عليه الشعراء في دراوينهم ، مترنمين بسحرها .. قاصراً شعره فحسب على الاشادة بأجداد امته ، والافصاح عن موقفه حيال قضاياها المصيرية .. مصوراً اروع تصوير وابدعه مأساتها مهيباً بها الى وعي ذاتها .. واصفاً وصفاً بارعاً الظروف المؤسفة التي تتناهبها ولا تجد لها حلاً مرضياً .

وهذا الجانب الانتقادي الذي ركز عليه جلّ قصائده ، لا يعدو جانباً قومياً واخلاقياً ، يمثل موقفه العاطفي من تلك الظروف ، ويجسد حبه النقي لأمته ، ويلور علاقته الوشيحة بها ، بكل مآثره هذه العلاقة من رؤى واخيلة ، ليست وليدة قلق ميتافيزيقي استحکم به ، بل نتيجة عاطفة غامرة استحوذت عليه ، لاتفتأ تتجلى وتتجدد فتذكره بواجبه القومي الذي يستمد منه العون على اداء رسالته كشاعر ..!

لنستمع اليه في قصيدته (جلاء ووحدة) التي أنشدتها في احتفال جرى في احدى الثكنات بدير الزور عام ١٩٦٠ حيث يقول وقد تملكته نشوة غامرة :

ثونا لتحرير البلاد من العدى
ونعدّ درب النصر بالريحان
سيرنا الى ساح الوغى نبني الحيا
ة عزيزة بمصارع الشجعان
لم نرهب الغدر الذي جاءت به
حملات امّ البغي والحذلان
كنا كألسنه اللهب ضوارياً
بدأت سطور المجد في نيسان
كنا كعاصفة تهبّ شديدة
تلهو بنار او كثيف دخان
كنا كحده السيف في غسق الدجى
ولنا الغد المرجو في الاكوان

ويردف قائلاً :

لك أمتى دمي الأصيل ومهجتي
والخافق المعمور بالايمان
فالوحدة الكبرى اساس كفاحنا
عبر العصور ودائر الازمان

وغني عن البيان أن شاعرنا (العزاوي) في دعوته الى الوحدة
الكبرى - التي اعتبرها - هدف كفاحنا - انما قصد تحريك عاطفتنا
القومية ، واضعاً نصب عينيه المثل العليا ذات القيمة النضالية التي تمثلت
لا في كفاحنا من اجل تحقيق وحدتنا فحسب ، بل القيمة الخلقية التي
عاشتها امتنا ، وجسدها - عبر الزمن - ابطالنا الميامين الذين عرفوا

بانسانيتهم ، فاسترعوا بها انظار العالم مما دفع (غوستاف لوبون) الى القول : (ما عرف التاريخ فاتحاً ارحم من العرب) .. ونراه في قصيدته (حجارة الغضب) يعبر عن انطباعه حيال اطفالنا الذين لا يبرحون صامدين ، يقارعون العدو الغاصب بالحجارة وقد تحكم فيهم دافع وطني صادر عن أفعال شعورية نابعة من ارادة واعية ، دالة على نزعة تحررية اصيلة ذات اهمية قصوى بالقياس الى الحقبة الراهنة التي تمر بها فلسطيننا السليبة .. موضحاً ما يمتلئ في نفسه من زهو بنضالهم المستमित وما يجيش بها من فخر بتحديهم العدو .. وسقوط اغلبهم صرعى نتيجة حمقه ورعونته وصلفه .. مثبتين انهم بتضحيتهم بأرواحهم ، وبذلهم انفسهم رخيصة في سبيل ذودهم عن ارضهم وكرامتهم .. انما يعطون المثل الحي في ثلثيهم عن (اناهم ego)

للسمو بوطنيتهم الى الاعلى .. متطلعين الى غد مشرق جديد ، يعكس ايمانهم الصادق بصنع هذا الغد ، الذي تتجدد به طاقتهم ، وتسمو هممهم ، ويعمق وجدانهم القومي !..

ولا يساورنا شك في ان هذه القصيدة الغراء - بأسلوبها التعبيري الموحي ترصد حدثاً هاماً ، وتصور عالماً بهيجاً يحفل بمعطيات حية تتجلى فيها روحنا الثورية ممثلة في اطفال الحجارة البواسل الذين امسوا اليوم النموذج الثوري لكل من تفتح قلبه ، وأحس بوجوده ، وافعم وجدانه بحب وطنه وارضه ، فمضى يناضل من اجل حياة حرة كريمة .. يستهل الشاعر قصيدته بوصف روح النضال البطولية التي سبق ان عاشها من تقدم اطفالنا من ابطال كانت حميا الثورة على الغاصبين تعصف في نفوسهم الحرة الالوية ، وتدوي في قلوبهم الطافحة بحب وطنهم وارضهم حيث يقول :

هذي حجارتنا المقلع يحملها الـ
إيمان يقذفها في غمرة الصخب
قد عاد فارسها (القسام) ممتشقاً
حسام ثورته يزدان باللهب

شبابنا نذروا للنصر انفسهم
وللشهادة بخساً كل مكتسب
بالانتفاضة ابطال ضياغمة
أحجارهم كبرت عن صيحة الغضب
يقاتلون عدواً لله في شمم
يلاحقكم والعزم لم يخب
فلا رصاصكم يثني عزائمهم
ولا قنابلكم اقسي من التوب
يا ثورة الحجر اللهي جوانبه
يا ثائرين صموداً في ذرى النقب

*

ويختم الشاعر قصيدته معجباً بأطفالنا الاشاوس .. مؤمناً بأنهم
ملايتغوا في موقفهم البطولي الذي وقفوه الا الغضب لكرامتهم ، وقذف
الرعب في قلب عدوهم صارخين به صراحاً روعه واقض مضجعه ..
هاتفين به هتافاً مدوياً (لقد علمتني ذاتي عزة جديدة اعلمها الناس ..
علمتني الا اخفي رأسي بعد اليوم في رمال الاشياء ، بل أرفعها رأساً
عزيزة تبندع معنى الارض) .. علمتني انه مادامت الارض موجودة فلن
أياس او اقنط ..

لله درهم رمز انتفاضتنا

ابطالنا حَجَر في حلق مستلب

سيطردون عدواً الحق عن وطن

ثواره شهب ترقى الى شهب

ينقذون ثرى اوطانهم بدم

الذ من غسل ابهى من الذهب

ويخفق العَلَمُ الحرّ الذي بذلت
من اجله مهج من مارج اللهب

*

وثمة قصيدة ثانية في (اطفال الحجارة) لاتقل عن اختها روعة
وجمالا اسمها الشاعر (جيل الغضب) عبّر فيها عن رأيه فيهم ، وبلور
نظرتهم اليهم يغير فيها رأى القائلين بأنهم (اطفال) . نافيا عنهم هذه
الصفة ، مؤكداً انهم ليسوا اطفالاً بل هم أبطال بكل ماتحمل البطولة
من معنى .. انهم - في رأيه - يمثلون روح البطولة .. احبوا الموت
لتوهب لهم الحياة .. مثبتين لعدوهم انهم (ولدوا للغضب) .. للغضب
فحسب .. وانهم عشقوا ارضهم وهاموا بترابها ، فثاروا في سبيل
الحفاظ عليه ..

وكيف دار الامر ، فإن هذه النظرة الشمولية لاتفقد صحتها في
ضوء تحدي اطفالنا عدونا الغاصب ، بل تؤكد باعتماد ان تحديهم -
كما يبدو للعيان - سيظل فريداً من نوعه في تاريخ كفاح الامم
والشعوب كافة .. تقف امتنا وحدها ممثلة في اطفالنا ، في حقبة تاريخية
معينة .. وفي هذه الحال يغدو موقفهم ضرباً من الكفاح اوصلهم الى
إخلاص بطولي .. وهذا الاخلاص هو نفسه الذي بواهم ليمسوا
ابطالاً ..

فلنستمع اليه يقول منشداً مفاخرأ :

العاشقون الأرض الخير طاهرة

تلقاهم بخنان العاشق الدار

الثائرون لتحرير الحمى وهنا

ك في حميا اللظى يلقاك مثار

الصار خون بوجه الظلم صرختهم
ما زال يحفزهم للنصر تيار
الرافضون وجود الغاصبين قذى
على ثرى وطن يحميه ابرار
الحاملون وفي يسراهم كفن
وفي اليمين مقاليع واحجار
الساترون الى ساح الوغى دونما
خوف اذا انتفضت للنصر ثوار
ثم يختم قصيدته مبهامياً ،
الفلانجون لاجلدى الحسينيين
ابناؤنا فلذ الاكباد والنار
الناقمون وفي ايديهم حجر
هو السلاح من الانقاض هذار
جيل تفجر يسمو للعلا شماً
يحمي قضيتته والسيف بتار

*

بهذا الوصف الرائع الذي لا ينسحب على القصائد الغر التي
اختزتها أنفأ لافصح بها عن موقف الشاعر حيال قضايانا المصيرية
فحسب ، بل ينسحب على يحمل قصائده التي ضمها ديوانه .. بدءاً من
قصيدته (توبة) وانتهاءً بقصيدته (نشيد العلم) وقد أتت كلها
تعبيراً عن إيمانه الصادق بأمته ، وتوقاً الى غرس البغض في صدور بينها
امعانا في كره الطامعين بها ، وحفزاً للهمم المتجلية في محاربة عدوها ،

وشحذاً للعزائم المتقددة في جوانحهم ، ذوداً عن قيمها الاصلية وصيانة
لمثلها العليا التي عاشوها فكانت بحق مشعلاً وضاءً يهتدون بنوره
ويسرون مزهوين مستنيرين بهديه ..

ولا أراني مغالياً إن انا قرنت شاعرنا (عبد العزيز عزاوي) في
ديوانه (من الاعماق) بصناجة قوميتنا الفحل (الشاعر القروي) في
ديوانه (الاعاصير) الذي وصفته في كتابي (مع الفجر العربي) قائلاً:
(انه هو وحده الذي ادى وظيفته على خير ما يكون الاداء وقام
بمهامه بما لا يدع زيادة لمستزيد .. فهو منذ ان احس بوجوده كشاعر
ملهم - ربط مصيره بمصير امته التي احبته وادرك التبعات الجسام الملقاة
على عاتقه حيالها .. فراح يستوعب عواطفها ، ويلور في ذاته الحية
الخصبة اهدافها ويستلهم مثلها ، ويتفاعل مع آمالها وطموحها تفاعلاً
ايجابياً عميقاً ، غناه بشعره احلى ما يكون الغناء ، وترجمه بنظمه اوقع
ماتكون الترجمة .. ومن المدهش حقاً ان لوعة هذا الشاعر الفذ على امته
ماتلطف قط ولاونت بل ازدادت استعاراً واضطراباً ، كلما تألبت
عليها قوى الطغيان ، او حزبتها النكبات ، او حاقت بها المصائب ، او دهمتها
عناصر الشر .. فكان يبحث جاهداً عن مقومات تحرر امته العربية) ..

على هذا النحو سار (عبد العزيز عزاوي) في ديوانه (من
الاعماق) فكان بحق صنو (الشاعر القروي) وقرينه في ديوانه
(الاعاصير) .. يث الوعي القومي في نفوسنا ، ويستنهض هممنا في
مقارعة اعداء امتنا ، ويدعونا مخلصاً لمجابهة الخطوب التي لاتني تلم بنا
وتتألب علينا .. مبدعاً روحاً جديدة هي روح الإباء والكفاح ..
ناهضاً لتقوية ثورة الغضب في صدورنا دفاعاً عن كرامتنا ، وذوداً عن
حمى وطننا .. لأنه واثق اشد الثقة ببواعث تلك الحميا التي تعتلج بين
جوانحنا .. وهذه البواعث لاتعدو - بالقياس اليه - نقطة تحول ، أو
قواعد نبني عليها ثورتنا النضالية ونشيد عليها صرح وحدتنا المرتقبة .

ولا يسعني - في خاتمة المطاف - الا أن اشيد بقصيدة عصماه
ضمها الديوان اسمها (النهر الازلي) جاءت درة في عقده الفريد ..

احسن فيها الشاعر برهافة حسه ، ونفاذ بصيرته وعمق رؤيته ، وصف
(فراتنا) وصفاً دقيقاً وتصويره اياه تصويراً بديعاً ، يستحق عليها جزيل
المدح ووافر الثناء لصدقته في صياغتها ، وتوجّعه على المصير البائس
الذي انتهى اليه هذا النهر الخالد ، الذي كان بالامس البعيد او القريب
زاخراً هداراً تغنى بهديره وجيشان غواربه شاعرنا القديم (النابغة
الذبياني) حيث يقول :

وما الفرات اذا جاشت غواربه

ترمي اواذيه العبرين بالزبد

وهانحن اليوم نرى تلك الغوارب الهدارة ، والاواذي الجياشة وقد
آلت الى خفوت .. ولم نعد نسمع فيها الا الانين الخافت .. ولم تعد
تتأذى الينا الا الشكوى المضمّنة المقرونة بالحزن والاسى ..

فلنرهدف سمعنا الى هذه الشكاة المريرة التي يرسلها الشاعر في
غمرة اساه ووقدة حزنه :

تسير في مهل والماء مكتب

والحزن باد على عبريك والنصب

يانهر قد زدتني حزناً على المي

مرورك اليوم في مجراك مضطرب

اراك تجري ثقيلاً واهناً وجلأ

وقد عرفتك هداراً به غضب

ويضيف :

يانهر يا أعرق الانهار قاطبة

الخصب والقحط في واديك تحترب

ما كنت احسب يوماً أننا سنرا

لذّ والدموع بها الاجفان تضطرب

ويختمها قاتلاً :

فالقاع موحلة والسطح موحشة

والناس يائسة والارض ترتقب

*

وبعد .. حسب الشاعر (عبد العزيز عزاوي) انه متحّ قصائده
الغرّ التي التمسناها في ديوانه من اعماقه .. متحها من سويداء قلبه ..
من حرارة عاطفته .. من رؤياه ورؤيته كشاعر قومي يحسّ احساساً
عميقاً ، ويعاني معاناة صادقة الظروف القاسية التي تمرّ بها .. حاملاً
بيده الشعلة المنيرة التي تنير لها الدرب نحو مستقبل أفضل !..

وهذه الظاهرة المتميّزة التي تبدّت في شعره لم تجيء عبثاً ، بل
جاءت نتيجة تجربة حياة عاشها الشاعر بشفافية عاطفته ، وعمق وجدانه
القومي ، ورسخها وفاؤه لأمته ، وجسدها شعوره بمسؤوليته حيالها ..
مبدعاً إياها في صور جمالية قومية موحية أخاذة لا يقوى على تسجيلها
إلا شاعر متمكّن ومصوّر بارع ، اعاره الالهام شكواه وتغريده !..

_____ *

لغتنا الجميلة

معجم شوارك النحو

حين فرغتُ معجباً من مطالعة هذا المعجم الفريد ، الذي لا يحتوى على ادوات من حروف واسماء على طريقة (فغني اللبيب) وغيره ، ولا على تعريفات مفهومة لأبواب النحو مشفوعة بالأمثلة الدالة فحسب بل هو كل ذلك ، حيث اتى بفوائد حمة يصعب أن يقع عليها القارئ ، الا بعد صبر طويل ، وجهد متصل وبحث دائب في المراجع اللغوية - على حد قول مصنفه - الباحث اللغوي المتمكن (رفيق فاخوري ١٩١٢ - ١٩٨٥) الذي كانت العربية في شتى فنونها ومتباين ألوانها هما من همومه ، وهاجساً من هواجسه يلقي محاسنها تلامذته الكثر ، فيدلمهم على صحتها ، وينبههم على حقيقتها ، ويشير نخوتهم للحفاظ على كنوزها المخبوءة حتى ليصدق فيه قول شاعرنا (المتنبى) .

انام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراًها ويختصم

فأضحى بهذا كله من اهل اللغة الافئدة واساطينها الميامين العاملين فيها ، العارفين دخائلها واوضاع مفرداتها الساهرين المناضلين من اجل جلوها وفتح مغاليقها ، بعد ان لاع قلبه الهم على مصيرها وكربت نفسه رؤيتها وهي تأخذ اليوم مساراً غير مسارها الصحيح الذي درجت عليه فأكدت حضورها ، وأثبتت بجدارة انها بحق ام اللغات .

بيد انها - وبالحسرة - اهلكت اهمالاً شنيعاً من قبل الكثرة
الكاثرة من الكاتبين الذين يأخذون عنها ، اذ نهجوا بها نهجاً مغايراً
يدلّ دلالة واضحة على انهم لا يصرفون عنايتهم اليها ، ولا يحسون
بالتبعة الملقاة على عاتقهم ، مما يتوجب عليهم من التقيد بقواعدها ،
اما لجهلهم اوضاع مفرداتها ، اولفوات حظوظهم من الالمام بعلمها ..

ولا يساورنا شك في ان هذه الظاهرة المقيمة هي التي دفعت بباحثنا
اللغوي (رفيق فاخوري) الى تصنيف معجمه القيم ، كيما ينضو فيه
التقارب عن شوارد النحو الخافية على الكثيرين منا ، واجداً العلاج
الشافى ، مانحاً الدواء الناجع للشفاء من عللنا في جهل لغتنا ، وتجنّبنا
الجنوح الذي يضر بها ويودي بأصالتها منها ايّانا الى الانصراف عن
هذا التصرف المقيت في استعمال مفرداتها في غير موضعها .. هذا
التصرف الذي يخرجنا عن المحفوظ والمنقول عنها ، وينأى بنا عن الالمام
بفنونها ، الماما يعيد اليها اصالتها ، ويؤكد فرادتها ، وانها تصلح لكل
عصر إن نحن عرفنا قيمتها ، وقدرناها قدرها على اكمل وجه واتمه ..

وها أنذا تحدوني الغيرة على لغتنا كما حدث غيرة مصنف المعجم
أن اكاشف القراء في بعض ماورد في معجمه ، بختزناً مايفيد من فاتهم
الحظ منهم الوقوف عليها ، والاخذ بها ، مؤمناً إيماناً صادقاً بان لغتنا
من أغنى اللغات واجملها واكثرها حساسية ، وان الواجب يقتضيها
الحفاظ عليها بالسير على هديها ، واحسان استعمالها ، ابتغاء اعادتها
الى ماكانت عليه من سمو بوأها مكانة مرموقة لم تبلغها سواها من
اللغات ! ..

ابداً وقطاً

(ابداً) ظرف زمان للمستقبل .. اما (قط) فهي ظرف للماضي
على سبيل الاستغراق .. واشتقاقه من قططته اي قطعته ، فمعنى
(ما فعلته قط) اي ما فعلته فيما انقطع من عمري ويؤتى به بعد النفي او

الاستفهام ، للدلالة على نفي جميع اجزاء الماضي او الاستفهام عنها ..
ومن الخطأ ان يقال : (لا أفعله قط لأن الفعل هنا مستقبل و(قط)
ظرف للماضي ! ..

أيضاً

(ايضاً) مفعول مطلق حذف عامله وجوبا سماعاً .. او حال حذف
عاملها وصاحبها .. وعن ابي هلال في (الفروق اللغوية) نصب
(ايضاً) على المصدرية ، وهو من المفاعيل المطلقة ، التي يجب حذف
فعلها مثل سقياً ورعياً ، فالتقدير آض ايضاً ، بمعنى رجع رجوعاً .

الآياك - الآك

تقول جاء القوم الا اياك واياه واياي ولم يأت (اياك) و (الإكم
(الاشاذاً ..

بأن (في قولك : ذلك بأن ..)

قولهم (ذلك بأن) اي ذلك بسبب ان .. ومنه قوله تعالى :
(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) اي ذلك سبب ان .. , (ذلك)
مبتدأ .. وقوله : (بأن الذين) .. خبراً ..

بل حرف ابتداء

في قولك : (ما الإحسان منكوراً بل مشكور) يجب الرفع في
كلمة مشكور ، وتعرب خبراً لمبتدأ محذوف اي بل هو مشكور ..
ويتعين في هذه الحالة اعراب (بل) حرف ابتداء ولا يصح اعرابها حرف
عطف .. وإنما تكون (بل) حرف عطف بعد النفي وغيره نحو (ما
أهنت نبيلاً بل حقيراً) .. في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل
الله أمواتاً بل احياء) . بل احياء اي (بل هم احياء) .. و(بل) هنا

ليست عاطفة ، لأن المعنى يختل اذ يصير التقدير لاحتسبنهم احياء .. قال بعضهم : عطفت جملة على جملة ، فصار في حكم الاستئناف !..

بل العاطفة

(بل) يعطف بها بشرطين : افراد معطوفها ، وان تسبق بإيجاب اوامر او نفي او نهى ومعناها بعد الاولين سلب الحكم عما قبلها وجعله لمابعدھا مثل : (قام زيد بل عمرو) و(ليقم زيد بل عمرو) وبعد الاخيرين تقرير حكم ما قبلها ، وجعل ضده لمابعدھا ..
كما ان (لكن) كذلك كقولك : (ماكنت في منزل ربيع ، بل في ارض لا يهتدى بها) و(لا يقم زيد بل عمرو) .

بله

(بله) كلمة مبينة على الفتح ككيف ، ومعناها دع .. قال (كعب بن مالك) يصف السيوف:
تذر الجماجم ضاحياً هاماتها

بله الأكف كأنها لم تخلق

يقول : هي تقطع الهام فدع الأكف .. اي هي اجدر ان تقطع الأكف .. ومنه قولهم :
(هذا ما أظهره لك بله ماضمره) اي دع ماضمره فهو خير ..
وفي المثل :

(تحرقك ان تراها بله ان تصلاها) .. يقول : تحرقك النار من بعيد فدع ان تدخلها ومن ذلك قول (المتنبي) :
اقلّ فعالي بله اكثره مجدّ

وذا الجد فيه نلت ام لم انل جدّ

وقال (ابن الاثير) : بله من اسماء الافعال بمعنى دع واترك ، وقد
توضع موضع المصدر وتضاف فتقول : بله زيد اي ترك زيد ا..

بلى ونعم

بين بلى ونعم واجل فرق .. فبلى تختص بوقوعها بعد النفي
فتجعله اثباتاً لقوله تعالى : (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا ، قل بلى
وربي لتبعثن) وقوله .

(الست بربكم قالوا بلى) ..

اما نعم واجل فإن الجواب بها يتبع ما قبلهما في اثباته ونفيه نحو
قوله تعالى :

(فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم) .

تارة

تارة اي مرة والجمع تارات او تير كعنب .. وربما قالوا : فعله
تارة بعد تار بحذف التاء .. واما انتصابها فهو اما على الظرفية او على
المصدرية على قياس ما قيل في مرة .. في قولك ضربت مرة ا..

ورغم

يتصرفون في كلمة (رغم) تصرفاً يخرجها عن المحفوظ والمنقول
فيقولون : فعلته بالرغم منه ورغماً عنه ، وبالرغم عنه .. والمسموح في
استعمالها عن العرب قولهم : فعلتُ ذلك على رغم أنفه وعلى رغمه ،
وعلى الرغم منه !..

طالما وقلما

طال وقل ان وصلتا بـ (ما) وليهما الفعل ، كقولك : (طالما زرتك و) قلما هجرتك فـ (ما) فيهما مصدرية والمصدر فاعل .. والتقدير (طالت زيارتي) و(قلّ هجري) .. وقيل : إن (ما) كافة للفعل عن طلب الفاعل .. وعلى هذا تكون (طالما) كافة ومكفوفة ، ومثلها قلما وكثرما !..

فقط

الفاء في (فقط) لتزيين اللفظ و(قط) اسم فعل بمعنى فحسب (فاء فحسب كفاء فقط عاطفة عند بعضهم او الفاء داخلية في جواب شرط محذوف و(قط) على هذا اسم فعل امر بمعنى (انته) وتقدير الكلام: (اذا عرفت ذلك فانتبه) ... وفي (المطول) ان (قط) من اسماء الافعال بمعنى انته ، وكثيراً ما تصدر بالفاء تزيينا للفظ وكأنه جزاء شرط محذوف .. وفي كتاب (المسائل) لابن السيد : وانما صلحت الفاء في هذه لان معنى (اخذت درهما فقط) اخذت درهماً فاكتفيت به ، فجعل الفاء فيه عاطفة ..!

كافة

المشهور ان (كافة) لا بد من تنكيره ونصبه على الحال قال (الفضل الغزي) في (شرح اللباب) : ومن الاسماء ما يلزم النصب على الحال استعمالاً نحو (طرا وكافة وقاطبة) واستهجنوا اضافة (كافة) و(قاطبة) في كلام الزخشي والحريري !.. ونظير هذا الوهم قولهم (حضرت الكافة) فيوهمون فيه ايضاً على ما حكاه (ثعلب) فيما فسره

من معاني القرآن .. والصواب فيه ان يقال : (حضر الناس كافة)
كما قال سبحانه وتعالى : (ادخلوا في السلم كافة) لأن العرب لم
تلحق لام التعريف بكافة ، كما لم تلحقها بلفظة (معا) ولا بلفظة
(طراً) ..

ليس غير

تقول : (قبضت عشرة ليس غير) والاصل ليس المقبوض غير
ذلك فأضمر اسم ليس وحذف ما أضيفت اليه غير ، وبنيت (غير)
على الضم تشبيهاً لها بقبل وبعد.. ويحتمل ان يكون التقدير (ليس غير
ذلك مقبوضاً) ثم حذف خبر ليس وما أضيفت اليه (غير) وتكون
الضمة على هذا ضمّه إعراب .. والوجه الاول اولى .. واما (لاغير)
فلم تتكلم به العرب فيما انهم قاسوا (لا) على (ليس) او قالوا ذلك
سهواً ..

مع

كثيراً ما تراهم يستعملون (معاً) بعد الافعال المبنيّة على وزن
(تفاعل) للمشاركة فيقولون : تشارك زيد مع عمرو .. وتحدث بكر
مع خالد .. وتصارع فلان مع فلان .. والصواب ان يقال : تشارك زيد
وعمر او شارك زيد عمراً ..!

وبعد ..

تلك بعض نبذ اوردها (رفيق فاخوري) في (معجم شوارد
النحو) اثر تجارب لغوية عاناها .. لشد ما تمر في احاديثنا وكتاباتنا
دون بصيرة ، فتبعدنا عن حقيقة ماهيتها الموجودة فيها ، وتنأى بنا عن
النهج السوي الذي انتهجه اجدادنا فعزّوا وبزّوا .. وعلة ذلك - عندي
- اننا لانستضيء بجديّة الاستعانة بصحيح لغتنا ، ولانعمد جاهدين الى
وضع مفرداتها في موضعها طبقاً لبنيتها اللغوية ، ولانحكّم ذوقنا السليم

الذي يجنبنا الخطأ الذي قد تقع فيه ، تبجلاً للغة الجميلة وهي كما
اسلفنا من اغنى اللغات واعلاها شأناً .. وهذا لعمري هو الغاية التي
قصودنا من التنويه بهذا المعجم ، وهو الهدف الذي رمينا اليه في الاشادة
بمصنفيه .

_____ *

سِحر الغناء

مغناة عربية ذات خمسة مشاهد

تقديم :

لم تكن التمثيلية معروفة - كفن - او ملكة - في أدبنا العربي القديم لأسباب جمة لا مجال لذكرها الآن .. ولكننا نرى ان ثمة كثيراً من الحوار التمثيلي او "المناظر الصغيرة" مبنوثة في طيات كتبنا الأدبية القديمة .. نستطيع بقليل من الجهد ان نجعل منها تمثيلات تحاكي - من حيث خلق الجو المسرحي - أروع المسرحيات الغربية .. ولقد جرب الروائي العربي الكبير توفيق الحكيم هذا الضرب من الأدب في بعض مسرحياته الصغيرة التي نقلها عن (الجاحظ) دون ان يغير في اللفاظ والمعاني ، بل سمح لنفسه - كما يقول - ببعض الحذف وبعض الملاءمة بين وضع الحوار الاصلي ، والوضع المسرحي ، من غير ان يمس جوهر الموضوع !.. ولقد اشار توفيق الحكيم الى ان عناصر كل موضوع من انواع الادب والفكر موجودة عند ادبائنا القدامى لكنها مجرد عناصر فحسب .. كما دعا الى استخراج هذه العناصر وتفصيلها وتبويبها ، هادفاً من وراء ذلك (اعادة الشباب) الى الأدب القديم باللباس حلة جديدة دون تغيير في اللب !.. وها أنذا انتهج نهجه في اقتباس هذه التمثيلية الغنائية القديمة التي تكاد تمثل ضرباً من (الاوبريت الغنائية) لا تقل شأواً عن اية (اوبريت غربية) في ازهى عصورها مؤمناً معه " بأن مجال العمل في الادب العربي القديم متسع ولن تفرغ منه اجيال قادمة برمتها .."

المشهد الأول

المنظر : (خارج المدينة المنورة) بئر .. غياض .. نخيل .. يدخل
المغني اسماعيل بن جامع السهمي رائحة غادياً في خطى مضطربة واسمال
بالية .. ييلنه على حين غرة غناء آت من بعيد فيقف مرهفاً سمعه ، ماداً
ناظريه .. يرى نسوة يقبلن وقد حملن على عواتقهن جرار الماء ..
تعتريه هزة فرح .. تقترب النسوة منه ، ولاتبرح احداهن مسترسلة في
غنائها .

اسماعيل :

(يدنو منها وقد أخذ غناؤها بقلبه وان لم يع منه حرفاً يستوقفها
متردداً)

يا جارية ! ما أدري أوجهك ام غناؤك أسرني ! ولقد أعجبني
والله حسنُ غنائك .. (متوسلاً) لو شئت أعدت !

الجارية :

(مطمئنة)

حباً وكرامة (تجلس مسندة ظهرها الى جدار قديم واضعة جرتها
في حجرها صادحة بصوتها الاول)
شكونا الى احبابنا طول ليلنا
فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا ^(١)

(١) الشعر لعبد الله الأحوص الأنصاري (١٠٠ - ١٠٥ هـ - ٧٢٣ م) من بني ضبيعة وهو شاعر هجاء صافي الديباجة من طبقة جميل بن
معمر ونصيب ، وكان معاصراً لجريز والفرزدق ، ومن سكان المدينة .. تفاه
الوليد بن عبد الملك الى اليمن ، وكان حساد الراوية يقدمه في النسب
على شعراء زمنه .. لقب بالأحوص لضيق مؤخر عينيه ، وله اخبار كثيرة
(اغاني ج ٤)

وذاك لان النوم يغشي عيونهم
سراعاً وما يغشى لنا النوم أعيننا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما
نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

اسماعيل :

(لم يع منه حرفاً .. متوسلاً في لهجة تنم عن استحسان)
أحسنت ! لو شئت أعدت .. !

الجارية :

(تظن انى بيعته .. في تبرم)
ما أعجب أمركم .. أحدكم لا يزال يجيء الى الجارية عليها
الضريبة فيشغلها !

اسماعيل :

(يضرب بيده على دراهم ثلاثة لا يملك سواها فيدفعها اليها ..
معتذراً)

خذي هذه الدراهم الثلاثة فأقيمي بها وجهك اليوم الى ان
نلتقي . !

الجارية :

(تتناول الدراهم كالكارهة .. في لهجة اعتزاز)
أنت الآن تريد أن تأخذ منى صوتاً أحسبك ستأخذ به الف دينار
والف دينار والف دينار (تنبعث بالغناء بصوتها الاول حتى تكمله ثم
تنهض منصرفة يتبعها اسماعيل واجماً بنظرة اعجاب .. صمت قصير ..
يمضي متمهلاً وهو يترنم بالصوت نشوان حتى يتورأى ..)
(تطفأ الأضواء هنيهة ثم تضاء)

(فاصل موسيقي .. تقاسيم على العود)

المشهد الثاني

المنظر : (قبيل الغروب .. اسواق بغداد عاصمة الرشيد .. يبدو
اسماعيل مرهقا يرتدي ثيابا حائلة اللون .. يسير حائرا لا يدري اين
يتوجه ، ولا من يقصد .. يبلغ جسرا فيعبر مع من يعبر حتى ينتهي الى
شارع عريض .. يرى عن بعد مسجد بالقرب من دار الفضل بن الربيع
.. يبلغ المسجد فيقف قبالة) .

اسماعيل :

(مخاطباً نفسه) مسجد قوم سراة وقد تسامت مأذنته واحكم
بناؤه فلأدخله لعل به بعض من يعولني من اهل البر والاحسان !
(يدخل المسجد .. يصلي صلاة المغرب ويقوم فيه لا يرحه حتى يصلي
صلاة العشاء .. تبدو عليه آثار الجوع .. ينصرف اهل المسجد الا
رجلا يصلي وخلفه خدم ينتظرون فراغه .. ينهض الرجل منصرفاً فيرى
اسماعيل قابعا)

الرجل :

(الى اسماعيل)

احسبك غريباً ؟

اسماعيل :

(في هلع)

اجل ! (ينهض)

الرجل :

متى كنت في هذه المدينة ؟

اسماعيل (متردداً)

دخلتها آنفاً وليس لي بها منزل ولا معرفة .. وليست صناعتني من
الصنائع التي يمن بها اهل الخير !

الرجل : ما صناعتك ؟

اسماعيل :

(مطرقاً)

الغناء !

الرجل :

حسن ! (يلتفت الى احد الخدم) اعن به (يخرج)

اسماعيل : (للخدام)

من هذا ؟

الخدام :

هذا سلام الابرش يا أخا العرب

(يأتي رسول فيمضي باسماعيل)

(تطفأ الاضواء هنيهة ثم تضاء)

(فاصل موسيقي .. تقاسيم على العود)



المشهد الثالث

المنظر : (قصر من قصور الرشيد .. يسير اسماعيل خلف الخدام
في دهليز من دهاليز القصر حتى يبلغا مقصودة فيها خدم .. يجلس
اسماعيل متربعا في ركن من المقصورة ، وهو يتلفت كالمبهور)

الخدام : عليّ بطعام ! (يمضي احد الخدم ..)
(دنيهة صمت .. يؤتى بطعام .. يأكل اسماعيل حتى يمتلئ ..
تسمع جلبة وضوضاء خارج المقصورة .. يدخل خدام)

الخدام : اين الرجل ؟

الخدام : (بصوت واحد)

هوذا !

الخدام : ادعوا له بغسول وخلعة وطيب
(يمضي خدام ثم يعود حاملاً ابريقاً وطستاً وثياباً .. يبدأ
اسماعيل بغسل وجهه وارتداء الثياب التي قدّمت اليه يخرج مع الخدم)
(تطفأ الاضواء دنيهة ثم تضاء)
(فاصل موسيقي .. تقسيم على العود)



المشهد الرابع

المنظر : (داخل قصر آخر من قصور الرشيد .. سرر ورياش ارائك
.. رجل جالس خلف ستر عن يمينه ثلاث جوار في حجورهن العيدان ،
وفي حجر الرجل عود .. يدخل اسماعيل خلف خدام وهو يسرّح طرفه
فيما حوله مبهوراً)

الخدام : (الى اسماعيل بعد ان دنا من الرجل الجالس)

اجلس هنا

(يجلس اسماعيل)

الرجل : (الى اسماعيل)

حييت اخا العرب !

اسماعيل : (في صوت خافت)

حييت !

(صمت قصير .. يخرج خادماً من وراء الستر)

الخادم : (الى الرجل)

تغن ! (ينصرف)

الرجل :

(ينبعث بالغناء بصوت لابن جامع ولكن بغير اصابة واوتار مختلفة ودساتين مختلفة) .

لم تمش ميلاً ولم تركب على قتب

ولم تر الشمس الا دونها الكلل

تمشي الهوينا كأن الريح ترجعها

تمشي اليعافير في جياتها الوهل

(صمت قصير .. يعود الخادم)

الخادم : (الى الجارية الاولى التي تلي الرجل)

تغني (ينصرف)

الجارية :

(تنبث بالغناء بصوت لابن جامع ، ولكنها احسن حالاً من

الرجل)

يادار اضحت خللاً لا أنيس بها

الا الظباء والا الناشط الفرد

اين الذين اذا مازرتهم جزلوا

وطار عن قلبي التشواق والكمذ

(صمت قصير .. يعود الخادم)

الخادم : (الى الجارية الثانية)

تغني ! (ينصرف)

الجارية : (تنبث بالغناء بصوت لحكم الوادي)

فو الله ما أدري أيغلبني الهوى

إذا جدّ وشك البين ام انا غلبه

فإن استطع اغلب وإن يغلب الهوى

فمثل الذي لا قيت يغلب صاحبة

(صمت قصير .. يعود الخادم)

الخادم : (إلى الجارية الثالثة)

تغني ! (ينصرف)

الجارية : (تغني بصوت لحنين)

مررنا على قيسية عامرية

لها بشر صافي الاديم هجان

فقالا والقت جانب السبر دونها

من آية ارض او من الرجالان ؟

فقلت لها اما تميم فأسرني

هديت واما صاحبي فيمان

رفيقان ضم السفر بيني وبينه

وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

(يرين صمت قصير .. يعود الخادم)

الخادم : (الى المغني الاول)

تغن ! (ينصرف)

المغني : (ينبعث بالغناء بصوت يشبه فيه)

امسني باسماء هذا القلب معمودا

اذا أقول صحا يعتاده عيدا

كأن احور من غزلان ذي بقر

اعارها شبه العينين والجيدا

ومشرقاً كشعاع الشمس بهجته

ومسبطاً على كباتها سودا

(صمت قصير .. يبدو اسماعيل وكأنه يتهيا للغناء .. يعود

لخادم)

الخادم : (الى الجارية الاولى)

تغني ! (ينصرف .. يظهر اسماعيل تلملمه)

الجارية : (تغني بصوت لنحكم الوداي)

تغيرنا انا قليل عديدنا

فقلت لها ان الكرام قليل

وماضرنا انا قليل وجارنا

عزيز وجار الاكثرين ذليل

وإنا لقوم مانرى القتل سبة

اذا مارأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا

وتكرهه آجالهم فتطول

(صمت قصير .. يتهاً اسماعيل للغناء في ترُقُب وتوجُّس .. يعود الخادم)

الخادم : (الى الجارية الثانية)
تغني ! ينصرف .. يغضم اسماعيل بكلمات خافتة تنم عن الضجر،
ونفاد الصبر)

الجارية : (تتبعث بالغناء)

وددتك لما كان ودك خالصاً
وأعرضت لما صرت نهياً مقسماً
ولايبت الحوض الجديد بناؤه
إذا كثر الورد أن يتهدماً

(صمت قصير .. يبدو اسماعيل قلقاً وقد مدّ ناظره الى الستر في
تلهف .. يعود الخادم)

الخادم : (الى الجارية الثالثة)

تغني ! ينصرف)

اسماعيل : (في نبرة احتجاج)

ويجهم ! أتراهم نسوني ؟

المغني الأول : (في هدوء)

اصبر .. أتدري مايجب لك ؟

(صمت قصير)

الجارية : (تتبعث بالغناء)

وماكرّ إلا كان اول طاعن

ولا ابصرته الخيل إلا اقشعرت
فيدرك ثأراً وهو لم يخطه القنا
فمثل اخي يوماً به العين قرّت
فلست ارزى بعده برزّية
فأذكره إلا سلّت وتجلّت
(صمت قصير .. يتهمياً اسماعيل للغناء قلتماً مترقباً عودة الخادم ..
يعود الخادم .. يحدّجه اسماعيل بنظره في تلهف)
الخادم : (الى المغني الاول)
(تغن ! المغني ينصرف .. يهز اسماعيل كتفيه لامبالياً ، ويطرق
مفكراً)
المغني : (ينبعث بالغناء)
لحي الله صعلوكاً مناه وهمّه
من الدهر ان يلقي لبوساً ومطعماً
ينام الضحى اذا ليله انتهى
تنبّه مسلوب الفؤاد مورماً
ولكن صعلوكاً يساور همّه
وعمضي الى الهيجاء ليثاً مقدّماً
فذلك ان يلق الكريهة يلقها
كريمًا وإن يستغن يوماً فربما
(صمت قصير .. لا يبرح اسماعيل مطرقاً .. يعود الخادم)
الخادم : (الى الجارية الاولى)
تغنّي ! (ينصرف)

الجارية : (تتبعث بالغناء)

الم تر لما ضمّني البلد الفقير

سمعت نداء يصدع القلب ياعمرو

أغثنا فإنا عصابة مذبذبية

نزار على وفر وليس لنا وفر

(صمت قصير .. لا يبرح اسماعيل مطرقا لا يحفل بما حوله .. يعود

الخادم)

الخادم : (الى الجارية الثانية)

تغني (ينصرف)

الجارية الثانية: (تبعث بالغناء)

فلما تواقفنا وسلّمت أسفرت

وجوه زهاها الحسن ان تتقنعا

تباغن بالعرفان لما عرفني

وقلن امرؤ باغ اكل وأوضعا

ولو تواضعن الاحاديث قلن لي

أخفت علينا ان نغر ونخدعا

(تنتهي الجارية ولما يحضر الخادم .. صمت قصير .. يرفع اسماعيل

رأسه وينظر فيما حوله ، وقد ازدادت وطأة شعوره بالإعراض عنه ..

يتبادل والمغني نظرات يأس وضيق ، تم لا يلبث ان يخاطبه في صوت

خافت حزين)

اسماعيل : (الى المغني)

بأبي انت خذ العود واشدد وتره ، وارفع الطبقة

(يفعل المغني ما يطلبه اسماعيل .. يدخل الخادم)

الخادم : (الى اسماعيل)

تغن عافاك الله !

اسماعيل : (ينبعث بالغناء بصوت المغني على غير ماغناه)

لم تمش ميلاً ولم تركب على قتب

ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

تمشي الهوينا كأن الريح ترجعها

مشي اليعافير في جياتها الوهل

(تهرع جماعة من الخدم حتى تبلغ اسماعيل فتسندة على اريكة)

الخدم : (بصوت واحد)

ويحك ! لمن هذا الغند ؟

اسماعيل : (في لهجة متعالية دون ان يلتفت اليهم)

لي !

(يخرج الخدم .. صمت قصير .. يعودون مهرولين)

الخدم : (بصوت واحد)

(كذبت هذا الغناء لاسماعيل بن جامع .. يخرجون .. تطفأ

الاضواء هنيهة ثم تضاء)



المشهد الخامس

(يدخل هارون الرشيد وجعفر بن يحيى من وراء الستار .. يقف المغنون اجلالا مطرقين .. يسود المسرح جو من الخشوع والرهبة)

جعفر بن يحيى : (الى اسماعيل)

هذا امير المؤمنين قد اقبل يستمع الى غنائك !..

(يتقدم اسماعيل فيقبل يد الرشيد)

الرشيد : (وهو يعتلي سريره)

ابن جامع ؟

اسماعيل : (مطرقاً)

ابن جامع .. جعلني الله فداك يا امير المؤمنين !

الرشيد : متى كنت في هذه الحاضرة ؟

اسماعيل :

دخلتها آنفاً .. في الوقت الذي علم بي امير المؤمنين !

الرشيد :

اجلس ويحك يا ابن جامع .. أبشر وابسط املك !

اسماعيل :

(وقد استطاع السيطرة على نفسه)

ادام الله بقاء مولاي واعز سلطانه !

(يجلس)

الرشيد :

غنّ يا ابن جامع !

اسماعيل :

(يُخطر بقلبه صوت جارية المدينة ، فيومئى الى الرجل المغني ان
صلح العود حتى تستقيم اوتاره .. يتناوله منه وينبعث بالغناء بصوتها)
شكونا الى احبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم

سراعاً وما يغشى لنا النوم اعينا

فلو انهم كانوا يلاقون مثلما

نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

الرشيد : (الى جعفر في نشوة)

اسمعت كذا من قبل ؟

جعفر : (في استحسان)

لا والله ما خرق سمعي قط مثله يا أمير المؤمنين

الرشيد : (يلتفت الى خادم واقف خلفه هامسا بأذنه ..

فيناوله الخادم كيسا فيه دراهم .. يرمي به الى اسماعيل)

هذه الف دينار لك !

اسماعيل : (يتلقى الكيس فيصيرّه تحت فخذيه)

ادام الله بقاء مولاي وأعز سلطانه !

جعفر : (الى اسماعيل)

ردد يا ابن جامع على مسامع امير المؤمنين هذا الصوت !

اسماعيل : (يجيل بصره وهو يتزيد صوت الجارية ويتزيد عليه)

جعفر : (للرشيّد معجباً)

اما تراه يامولاي كيف يتزيّد في الغناء ؟ هذاخلاف ماسمعناه اولاً
وإن كان الامر في اللحن واحداً !

الرشيّد: (يومئ الى الخادم فيناوله كيساً آخر.. يرمي به الى اسماعيل)

وهذه الف دينار .. تغن اسماعيل ماحضرك !

اسماعيل : (في نشوة)

سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين

(ينبعث بالغناء بصوت له)

فلو كان لي قلبان عشت بواحد

وخلفت قلباً في هواك يعذبُ

ولكنما احيا بقلب مروّع

فلا العيش يصفو لي ولا الموت يقربُ

تعلمت اسباب الرضا خوف سخطها

وعلمها حيي لها كيف تغضبُ

ولي الف وجه قد عرفت مكانه

ولكن بلا قلب الى اين يذهبُ

(صمت قصير)

جعفر : (الى اسماعيل)

اتعبناك هذه الليلة بالغناء يا ابن جامع فأعد على أمير المؤمنين
رت الجارية !

اسماعيل : (يغني بصوت الجارية)

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم
سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما
نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

الرشيد :

(يؤمى الى الخادم فيناوله كيساً ثالثاً .. يرمي به الى اسماعيل)
وهذه الف دينار !
(يتذكر اسماعيل قول جارية المدينة فيبتسم ابتسامة يلحظها
الرشيد فيغضب)
ويحك ! مم تبسّمت ؟
(يخيم صمت مفاجئ .. يعتري الحضور وجوم وهلع)

اسماعيل : (يقف وهو يرتجف)

الصدق منجاة يا أمير المؤمنين ..!

الرشيد : (متتهراً)

قل ، لا أم لك !

اسماعيل : (مرتبكاً)

حدث لي يامولاي ان جارية حميراء مرت بي ذات يوم وهي تغني
على إيقاع شعريّ فسحرني غناؤها فاستوقفتها ، وطلبت اليها إعادته
ففعلت فأخذ في نفسي فرجوتها اعادته ثانية فاغتاظت ، فدفعت اليها
بثلاثة دراهم كانت بيدي فأخذتها كارهة وهي تقول الآن تريد ان
تأخذ مني بدريهما تلك صوتاً أحسبك ستأخذ به الف دينار ، والف
دينار والف دينار ، فتذكرت صدق قولها فتبسمت !

الرشيد : (وقد ذهب عنه الغضب)

قد يكون هذا !

(صمت قصير .. ينزل الرشيد من سريره فيقف الحضور اجلالاً
مطرقى الرؤوس .. يومئ الى اسماعيل ان يتبعه)

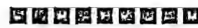
(فاصل موسيقي خافت .. تقاسيم على العود)

يسدل الستار



المحتوى

٥	إلى القارئ
٨	مع الشاعرة سلمى الحفار في أدبها وحياتها
٣٦	مع الشاعرة اللبنانية أندريه شديد
٤٠	طقوس العنف
٦٢	القلب المعلق
٩١	مناخ الشعر
١٠٥	بيانات شعرية
	رسالة من الفيلسوف الألماني نيتشه الى
١٥٤	الكاتب العربي بشر فارس
١٦١	الدكتور بديع حقي .. شاعراً ومترجماً
١٦٧	فن الترجمة عند الدكتور ابراهيم الكيلاني
١٧٣	جولة في ديوان " من الاعماق "
١٨٣	فوائد من معجم " شوارد النحو "
١٩١	قبس من تاريخنا .. " سحر الغناء "



صائب ، سعد ، في رحاب الأدب ، تجارب أدبية ونقدية ، دراسة ،

الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب

٢١٢ ص ، ٢٥×١٧

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥/١١/٢٠٠٠



الجمهورية التونسية
Bibliothèque Nationale
Tunis



هذا الكتاب

دراسات أدبية لها رؤاها ورؤيتها وأبعادها ، تقدم
الجانب الآخر الثري أدبياً وإنسانياً لكاتب عربي سوري
معروف أعطى الحياة الأدبية والفكرية العربية الكثير خلال
عقدين ونيف من الزمان .
وتتسم الدراسات بالعمق والجدية وجهد المتابعة والتأمل
ونزاهة الحكم على الأثر الأدبي وبكل موضوعية وعفة
فيها الكثير من أصالة الجمال .



ثمن النسخة : ٦٠ ل.س في القطر

٠٠ ل.س في أقطار الوطن العربي



مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

To: www.al-mostafa.com